

أحمد رجب شلتوت

فاطمة
لا تترقص
التانجو

قصص



ألف ياف
Alf Yaf



فاطمة لا ترقص التانجو
مختارات قصصية

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

المؤلف: أحمد رجب شلتوت
الكتاب: فاطمة لا ترقص التانجو (قصص)
صدرت النسخة الرقمية: حزيران / يونيو 2026
الطبعة الأولى 2025

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub، Mobi) أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ «ألف ياء AlfYaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

أحمد رجب شلتوت

فاطمة

لا ترقص التانجو

مختارات قصصية

الحفيديان:

أحمد حسام وعمر و حسام ...
ضحكاتكما أجمل ما في الحياة.

أراد أن يغنى، يغنى
لينسي
حياة من الزيف حقيقة
ويتذكر
حياة من الحقيقة زيف

// اوكتافيو باث //

محتويات الكتاب

11	الضحكون.....
15	العائد إلى فرحانة.....
19	انكسار.....
23	عراء.....
27	وقائع موت قط.....
31	تفائل وإلا قتلتك.....
35	كان جميلاً.....
37	دنياه الجميلة.....
43	ليلي تأكل الضفادع.....
45	إعدام ليلي.....
51	دم العصفور.....
57	حكاية المدينة التي أصبحت سجناً.....
63	مطاردة.....
69	تكوين.....
75	مكابدة.....
79	فاطمة لاترقص التانجو.....
83	زيارة.....
91	عن روحها التي تسربت خلصة.....
93	ساعة قبل النوم.....
97	موجة حارة.....
101	تلك التي لا تنسى.....
105	عطش اليمام.....

107	سفينة نوح.....
109	اثنان.....
113	تحقيق الحلم.....
121	الذي جرى.....
125	مفترق طرق.....
129	ذلك النداء.....
137	المبخرة والمجمره.....
143	فاتحة لصاحب المقام.....
147	بيت البحارة.....
151	الظل والقربان.....
153	وحيدان.....
155	انتظار.....
157	خلاص.....
159	سؤال.....
161	المخبوء.....
165	غواية.....
167	الآخر.....
171	عيون.....
173	الثابت والمتحول.....
175	المسألة نسبية.....
177	المصباح.....
	رؤى نقدية
181	قصص "أحمد رجب شلتوت" من منظور وجودي.....
197	أحمد رجب شلتوت يوثق مواقع المصريين قصصيا.....

الضاحكون

كان ينوى السير حتى القنطرة، حيث يعبر للجهة الأخرى من التريعة،
لكنه الكسل الذي دفعه لعبور الفلق. فالقنطرة بعيدة.

* * *

لمح ناراً موقدة. ثلثة من الرجال حولها يتحلقون. لم يدر أنهم رأوه
وطلبوا من كبيرهم أن يضحكهم عليه.

صوب كبيرهم بندقيته تجاه القادم. سعل وصرخ فيه:

- من هناك؟

لم يدع له فرصة للرد. واصل صراخه:

- قف مكانك، وإلا قتلتك

لم يقف القادم فانطلقت رصاصة. كانت في الهواء. أعقبها كبيرهم
بصيحة أشد:

- من أنت؟

- خ ... خ.. خدامك.. عوضين. وأنت من؟

- لماذا لم ترد بسرعة يا بن ال ...

-

- ما تنطق ساكت ليه.

- السماح يا سيدنا السماح.

- عقابا لك ستقف حيث أنت وحتى الصباح.

- سأرجع وأعبر فوق القنطرة.

- ابق مكانك حتى الصباح. إن تحركت سأقتلك.

* * *

كل ذلك ومن يتحلقون النار لم يضحكوا. ربما حرجا من كبيرهم. أو
لعلهم لم يتوقعوا أن يكون هكذا الإضحاك.

* * *

طال وقوف عوضين، منظره حرك الشفقة الراكدة في قلوبهم.
استعطفوا الكبير حتى نطق:

- فليمر

فرح عوضين. هم بعبور الفلق، لكن فاجأه الأمر:

- قف حيث أنت لم أمرك بالمرور

- ماذا فعلت لك؟

- لم تفعل شيئاً
- فلماذا لا تدعني أمر؟
- لن تمر إن لم تضحكنا
- كيف؟
- ترقص
- لكنى؟
- نعم ترقص. هيا أرني رقصك
- لكنى لا أعرف الرقص. لا أستطيعه
- إذن لنتمرن
- دعني الآن أمر. وأعدك أن أتعلم الرقص. وسوف أرقص لك في أي مكان تريد. في السوق. في البيت، في الحقل، في أي مكان. لكن دعني الآن أمر.
- لن تمر
- هل يرضيك أن أقف هكذا حتى الصباح
- لا.. لا يرضيني. لذا ستجلس
- أين؟
- مكانك. اجلس حيث أنت، وارفع يديك لأعلى
- أطاع عوزيين ونفذ الأمر. ولما طال جلوسه وملوا النظر إليه، طلبوا من كبيرهم أن يدعه يمر.

أمره فقام، بصعوبة عبر الفلق. دنا منهم. رأوا ملابسه وقد ابتلت،
أدركوا أنه بال على نفسه. حينئذ فقط ضحكوا، بينما كان عوضين يبكي
في صمت.

سبتمبر 1985

العائد إلى فرحانة

أخيراً اكتمل العدد وتحركت السيارة، قبل أن يصعد ألقى علينا السلام، وقبل أن نرد أسمعنا موالاً،

أطلت النظر إليه، وجدته فاقداً لبعض أسنانه، التجاعيد احتلت من الوجه أغلبه، والعينان فيهما حزن كامن يحاول الإفلات من أسر الكتمان. أنهى مواله وراح يلقي النكات. أضحكنا على السائق، وعلى نفسه، وعلى أنفسنا، وبعد الضحك حكى عن فرحانة، الزوجة وأم الولد الميت.

قطع حكايته ليخرج من بين طيات ثوبه علبة السجائر، أمر الجميع بالتدخين، وزع سجائره على الركاب، كنت في مؤخرة السيارة. ألقى تجاهي بعلبة السجائر المحتوية على السجارة الأخيرة، شكرته وأعدتها إليه معتذراً بأنى لا أدخن.

التقطها قائلاً:

- فعلت خيراً. أدخنها أنا.

وضع السجارة بين شفتيه وقذفني بالعلبة الفارغة.

صمت للحظات، حتى تلاشت السجارة ثم عاد للحديث عن فرحانة. سريعا مرت الذكريات السعيدة، وجاء الدور على الابن الميت. علت الكآبة وجهه. فعقدت لسانه. صمت لحظات لكنه لم يطق الصمت.

- دعونا من فرحانة وابن فرحانة.. خلونا في المواويل أفضل.

أدركت سر عدم استسلامه للصمت. أسمعنا موالا عن اللصوص التجار أو التجار اللصوص، قاطعته:

- وهل تسللوا إلى كل شيء حتى الموال؟

نظر إلى باستغراب. لم يدرك مقصدي. أردت أن أعيده إلى الحكايات، قلت:

- ارجع بنا إلى فرحانه.

فابتسم ابتسامة باهتة قبل أن يواصل حكايته.

دعا الله أن يسعدها كما أسعدته الليلة الماضية. قال إنه لا يود أن يغادرها.. أكد على أنه يشعر بانقباض لا يدرى له سببا. طوال حياته وهو يغادر القرية ومعه (السبوبة). بعد أيام من الرحيل يعود محملا بالهدايا، وقى الجيب نقود.

نعم الانقباض موجود عند كل رحيل، لكن هذه المرة أكثر من كل مرة.

سألته:

- ما دمت قد اعتدت الفراق، فلم الحزن؟

أجاب:

- أشعر بأن هذا الوداع سيكون الأخير.

* * *

«لم أكن أريد السفر اليوم. لييتها ما ألحت. قلت لها دعيني يوماً أو يومين. رفضت. تعللت بالإرهاق. قالت بالأمس أرهقت نفسك وأرهقتني. الخلاصة لم أصمد أمامها. تظل تلح حتى أَرْضُخ، وخشيت لو طال الكلام بيننا أن تذكرني بأن ما في البيت لن يكفينا معا هذين اليومين. فحملت السبوبة راحلا وتركته تبكى»

* * *

عاوده الاكتئاب فعاد للموال، هذه المرة كان مواله مثله حزينا. وهذه المرة باح بما يحزنه. ولما انفلت الحزن سد الطريق أمام الكلمات. طريقنا أيضاً كان مسدودا. رأينا الجنود يسدون الشارع. يملؤونه. أنبأ المشهد بمظاهرة. الجنود المسلحون بالعصى الغليظة ينقضون على الجماهير.. بوحشية يضربونهم. يتساقط الجرحى، والجنود - ككلاب الصيد - ينقضون على الجرحى يملئون بهم السيارات الزرقاء المقبضة.

شاب أفلت من الحصار. جرى ناحيتنا. زوج فرحانة فتح له باب السيارة. مد له يدا، لكن أيد أخرى طالته. تجمعوا حوله. خمسة جنود وسادسهم الضابط الذي صرخ فيهم:

- أدبوا ابن ال

بالعصى والركلات والبصق والشتائم أدبوه. بكى زوج فرحانة. أقسم أن الشاب يشبه ابنه الميت. غادر السيارة رغم محاولتنا لمنعه. ذهب إلى

الضابط يرجوه أن يدع الشاب. سمعنا الضابط يأمره:

- عد إلى السيارة يا مجنون يا بن ال..

لم يسكت زوج فرحانة:

- أليس لديك أولاد. هو أيضاً ابن ناس..

صرخ الضابط في جنوده:

- أيضاً أدبوا هذا المجنون.

وجه الضابط لكمة إلى فك زوج فرحانة الذي سقط بين هراوات الجنود. راحت الهراوات تهبط وتصعد، والضابط ينظر حتى عاف النظر. عندئذ أمرهم:

- كفى

كفوا عن الضرب. ركل الضابط زوج فرحانة الملقى على الأرض غارق في دمه. قلب فيه. لم يبد أية حركة. أدرك أنه مات. أمرنا أن نحمله إلى السيارة، هددنا بأن نلقى نفس المصير أن تكلم أحداً عما حدث.

* * *

صامتين حملناه إلى السيارة.. وعدنا به إلى فرحانة.

7 يناير 1986

انكسار

1

تمنى لو كان تغيب يومها عن العمل، ليته استجاب لرغبة طفله الذي بكى وأمسك بثيابه ليمنعه من الخروج، ليت امرأته أغرته ليبقى. ليت " ليت " تجدى.

يومها أصر ماجد على الخروج إلى مقر وظيفته الحكومية، خالف الأتوبيس عاداته ولم يتأخر، لحق بالمصعد الذي يرتاح بالطابق الأخير في المجمع حتى يفطر عم صبحى عامل الأسانسير ويشرب شايه، وقع مثبتا حضوره قبل رفع الدفتر، وفوق كل ذلك رأى وسمع كل ما حدث بين زميله عبد الحفيظ وسيادة المدير العام.

سمع شتائم وتهديدات المدير العام، ورأى كفه الغليظة تهوى على صدغ عبد الحفيظ الذي عمى عن كل الشهود ولم ير سواه، هتف به:

- أرايت وسمعت؟ سأطلبك للشهادة يا مجدى؟

2

يعلم ما يفعله المدير العام في مثل هذا الموقف. يجهز الشهود ويوزع عليهم شهاداتهم، يذكرهم بقرابته من الضابط الكبير بأمن الدولة، ويملى العقاب على الحاج عطية رئيس المحققين، الذي لا يكف عن عد حبات مسبخته، لكن ذاكرته الواهنة لا تحفظ العدد، فيبدأ من جديد، وهكذا طوال اليوم، لا يكف عن العد إلا ليرد على مكالمة المدير العام، يعده بأن ينكل بالموظف الغلطان ويعلمه الأدب، مجدى نفسه تعرض للعقاب، طوله الفارع وقوامه الرياضي لم يخيفا شهود الزور ولا المحقق ورئيسه، لذا شعر بانقباض حينما تلقى الاستدعاء للمثول أمام المحقق، هتف في سره بما كانت تقول جدته:

- "جاءك الموت يا تارك الصلاة".

3

انطلقت القذائف من فم المدير العام، لم يفهم مجدى إلا الأخيرة:

- كيف تجرؤ يا كيف تشهد ضدي؟

- لم أقل إلا الحقيقة

- الحقيقة هي ما أريد

لا يرد مجدى، يتحسس كلماته فلا يجد ما يمكن قوله، يحدق في اللاشيء، ينهى المدير العام الموقف، يشير له أن ينصرف، يركله بالتهديد المضمّر:

- يبدو أن عقاب المرة السابقة لم يكن كافيا لتأديبك.

4

تلقى مجدى قرار نقله بوجوم، يعلم أن الذهاب إلى المكان الجديد سينهك قواه وجيبه، والتأخير والغياب سيعرضانه حتما للعقاب، يلعن اليوم الذي رأى فيه عبدالحفيظ، لم يدع أحد بوسعه التأثير على المدير العام إلا وقصده، لكن يبدو أن غيظ الرجل من مجدى كان شديدا فلم يستجب لوساطة أو شفاعة أحد.

5

نفذ مجدى قرار النقل، لم تمر إلا أسابيع قلائل استنفدت رصيد إجازاته، وتقلص صافى مرتبه، فلما أوجعه الخصم علا صوته أمام الواقفين عند الخزينة أقسم أمامهم بأنه لن يسكت ولن يقبل الاضطهاد بعد اليوم.

6

- البننت تريد فستانا جديدا.

- أحتاج حذاء.

- ابنك مريض .

- مجدى .

- مج...

- م

دخل دون إذن. غافل السكرتيرة وتسلسل، رآه المدير العام ، تذكر ما نقل إليه، مقرونا بالتحذيرات من عنف مجدى المغتر بقوته، حار في أمر الطفل الممسك بيد أبيه، رجع المدير العام بكرسيه إلى الخلف، حاول أن يتماسك:

- أحذرك يا مجدى، الإقدام على أي حماقة يعرضك لأشد عقاب

مجدى يسير كالمنوم، يخطو ببطء، جارا ابنه الصغير.

- مجدى تذكر الباشا، وحياة أولادي سينفخك.

يوصل مجدى الاقتراب لكن ببطء شديد، أصابع المدير العام تضغط كل ما تطول من أزرار، يضيع صوت المدير المرعوب من التقدم الواثق البطيء لمجدي، لكن الأزرار كانت قد استدعت الساعة ورجال الأمن والعلاقات العامة، رأوا الأستاذ مجدى منحنيا أما المدير، يقبل يده وهو يكاد يبكي، يستحلفه بالطفل الذي لا ذنب له، يطمئن المدير العام، يستعيد هيبته، يشير لهم فيبتعدوا، يمنح الطفل الباكي قطعة حلوى، يشير لمجدي أن ينصرف، يلح مجدي في التذلل، يعده المدير العام بأن يعفو عنه، فيخرج مطرق الرأس جارا ولده، وفى أثرهما يخرج الساعة صامتتين.

يوليو 1988

عرء

فى البدء لم يكن موافقا؁ وكيف ىرحل عن بيت ولد بين جدرانه؁ وحبنا ونما؁ تلك الجدران شهدت ليلة عرسه الأولى. بينها ترددت أولى صرخات الأبناء؁ رأت جزعه حين مات الأب؁ وشاركته دموعه يوم لحقت أمه بأبيه.

البيت بالنسبة له ليس مجرد مكان يأويه؁ جدرانه ليست مجرد أحجار؁ إنها الحد الفاصل بين عالمين؁ عالم قاس ظالم وآخر على العكس منه شجى حنون؁ لماذا يريدون تقويض واحتة؟ إلى أين ىفر إن اشتد هجير الحياة؁ لماذا يريدون تقويض عشه؟ لماذا يهيجون طيور الذكريات؟ آه .. كم ىخشى عليها من الجوارح.

" سامحها الله أم الأبناء؁ انتزعتنى قسرا من واحتى؁ بكت وألحت :

- لا أريد لأبنائى أن ىموتوا تحت الأنقاض

- كونى عاقلة يا امرأة ؁ وهل أريد لهم ذلك؟

لم تصدق أن البيت سليم؁ جدرانه متينة وتستطيع التحمل لأكثر من

عشر سنوات أخرى، وسيشهد البيت فناء من تأمروا لإزالته، قالت وهي تشير إلى شرخ في الحائط، لا أصدق إلا هذا، سأهرب بأبنائي قبل أن يبلعهم".

كومت الأثاث لدى شقيق، وتكومت مع الأبناء لدى شقيق آخر، عاش وحيدا لأيام، تمسك بالمنزل القديم، وحدته زادت من شروخ الحوائط، فلحق بالنازحين.

" ابتسمت وهي تبعد يده الممدودة نحوها، بعينها نهته للأبناء من خلفها، همست شاكية من زوج أخيها، رفته أن يجد حلا، اقترحت أن يذهب غدا لمن كانوا جيرانا، يدعوهم للمشاركة في ترميم البيت، يقنعهم بأن ذلك أرخص من تكلفة الأماكن الجديدة إن وجدوها، وفي الصباح وجدوا البيت القديم وقد أصبح كومة خشب وأحجار بينما الشارع يضج بالغبار وصراخ النسوة وحيرة رجال قلبي الحيلة".

سألته الباكية: أيهما أهون تحمل ذل زوجة شقيقي أم الموت تحت الأنقاض؟ ثم نامت لتحلم بشقة تخصهم، وذات صباح منحتهم المحافظة خيمة.

كلما انهار بيت يمتد شريط الخيام، بدأ من طرف المدينة وواصل زحفه حتى أدرك مشارف الريف. خيمتهم لم تكن بعيدة عن الحقول، أكد لزوجته أن لا فارق بين خيمة في المدينة وأخرى في الريف، تسأله متى يدركون قسوة أن يمارس الإنسان حياته في العراء، كل حرماته منتهكة، كل أسرارها نهبا للأذان حتى وإن لم تسترق السمع، تسأله فيجيب بتنهيده ويرددها بنمتة " حينما يسكنون الخيام مثلنا".

وجع أسفل البطن يوقظه، يطرده من الخيمة، يشهد انسلاخ الفجر من

شرنقة الليل، يلتمس مكانا يفرغ تعب فيه، يرفع ذيل جلبابه، ينتبه لقرب الخيام، فيبتعد، يزداد الوجد فيسرع في مشيه، يقصد النخيل، يرى دراجة مسنودة إلى جذع نخلة، فوقها أوعية اللبن بينما البائع أقعى إلى جوار جذع نخلة أخرى، يكره أن يراه أحد في مثل هذا الوضع. يغالب وجعه ويبتعد أكثر.

ثمة برسيم، كرنب، خس، مزروعات قصيرة لن تستره، يوغل في الغيطان، يجد ضالته أخيرا، بين العيدان الخضراء الطويلة يندس، وحدها الذرة تمنحه سترا وأمانا، يخالجه شعور بالراحة، لكن العيدان تهتز، فهل ثمة آخر يستتر من العراء ام تراه ذنبا يبحث عن فريسة؟ تزداد الخروشة لا يسمع همسا أو أثر خطو، يزداد يقينه بأن ذنبا سيهاجمه من خلف، يجرى هاربا بحياته، مصرا على ان ذنبا يطارده، يجد نفسه مغروسا في حقل مروي حديثا فيفيق، فأس صاحب الحقل إن رآه هكذا ستكون أشد فتكا من أنياب الذئب. يجاهد الطين ليخرج، لكنه كلما نزع قدما تغوص الأخرى، لم يفله الطين إلا بعدما احتفظ بنعل الرجل الذي طلعت عليه الشمس وهو يطبع على وجه الطريق آثارا طينية.

أغسطس 1987

وقائع موت قط

ألفى نفسه وحيدا، فالزوجة ماتت، والأولاد - من بعدها - تفرقوا، ولم يبق معه سوى كلبه اللاهث أبدا.

قبل أسابيع قلائل كان ضابطا كبيرا مهابا، لا يكف تليفونه عن الرنين، فالجميع يقصدونه، يطلبون عونه أو نجده، يرجون رضاه أو يخشون إغضابه، لم يخطر بباله أن الجميع سيفرطون فيه، وينسونه هكذا، خاصة أولئك الكبار، تناسوا كل ما فعل من أجلهم، لم يدخر وسعا في سبيل تأمينهم وكشف مخططات مناوئتهم وخصومهم، كم دبر مكائد مستبقة مؤامرات الذين شك في ولائهم أو توجس من نواياهم، عاداه الناس ولقبوه بالجلاد، وغالى البعض فقالوا عنه "السفاح" وأهدروا دمه، لكنه لم يأبه بكل ذلك.

لم يطف بمخيلته أبدا أنهم قادرون على الاستغناء عنه، فهل لديهم آخر يمكنه أن يحل محله أو يخلفه في مكانه، قدراته تفوق قدرات الجميع، هم أنفسهم أقروا له في أكثر من مناسبة بالثبات والجرأة والإخلاص، حتى تلاميذه الذين اختارهم بعناية ودرّبهم ولم يبخل عليهم، فلقنتهم أفكاره

وأشربهم خلاصات تجاربه، فأمنوا بنظرياته الأمنية واتبعوا نفس أساليبه، أغلبهم لم يخيب ظنه وأثبت كفاءة عالية، لكن أحدا منهم لا يستطيع أن يجاريه فضلا عن أن ينافسه، هم بالنسبة له مجرد تلاميذ حتى وإن كانوا أفضاذا، لا يمكنهم العمل دون توجيهاته.

(أحمق ذلك الذي قرر الاستغناء عني) الحمقى أحواله إلى التقاعد استرضاء لخصومهم، ضحوا به حتى تمر عاصفة، لا يدركون أن عواصف أخرى سوف تهب في غيابه، وما هم في لحظة أبعدوه، وأطلقوا عليه أبواقهم ليهيلوا عليه - في الصحف- كل أوساخهم.

كلما هوى بسوطه على ظهر رجل كانت آهاته تسابق آهات المجلود، ولم يكن يكتفي أو يكف إلا بانتزاع الاعتراف الذي يؤكد مكانته عند السادة، ومهابته في قلوب الخصوم، يقينا سوف يدركون فداحة خطأهم وإلى الحق يرجعون، مجرد أسابيع وتهب عاصفة أخرى لتذكرهم بأهميته، سوف يأتونه معذرين، سيداري فرحته ويؤجل نقمته إلى حين، فبعد أن يفيقوا من غفلتهم لابد أن يدفعوا ثمن خطيئتهم في حقه.

كان يفكر فيما يمكن أن يفعله بهم بعد رجوعه، وكان يزرع بهو فيلته مرتديا بزته الرسمية، ولما أتته فكرة للانتقام اتجه نحو صورة له تشغل نصف الحائط، يتأمل الأوسمة التي تزين صدر من في الصورة، يمتلئ إحساسا بالفخر، ينتفخ وينتصب مؤديا التحية.

تنتقل له من صورته الابتسامة الواثقة الظافرة، فيهتف:

- "يحيا أنا .. يحيا أنا".

يتكرر الهاتف ويخفت تدريجيا هو يمشى بخطوات هتلرية صوب

مخدعه، طريقه محفوف بالصور، يتأملها كلها ثم يتوقف عند الصورة الأخيرة، يتأمل الوجه اللامع المبتسم، يخجل من إفراطه في طأطأة الرأس في مواجهة الكبير، يلوم نفسه لإفراطه في حسن الظن بذلك الجاحد ناكر الجميل، يبصق على الصورة، يطمئن نفسه بأن أيامه سوف تعود، لكن عليه أن يكون أقل غفلة وأكثر حذرا.

يتعثر في كلبه النائم إلى جوار باب غرفة النوم، يرمق الكلب بغیظ، يرمقه بغیظ، لا يكف عن اللهاث حتى وهو في الظل راقد، لسانه المتدلي يطال السجادة العجمي، يبللها بلعابه الغزير، يركل الكلب ويغلق الباب خلفه بغضب.

يخلع بزته الرسمية، يفردها فوق السرير، يواجه نفسه في المرأة، يتمطى ويتجشأ، يفكر في ارتداء البيجاما لكن فجأة يراعه شيء مستنفرا حواسه الأمنية، ثمة يد غادرة تخمش النافذة من الخارج، تحاول أن تفتحها لتفتح مخدعه، مؤكد هناك من يخطط لاغتياله، هناك من يتعقبونه، يعرف أن العداء كثر، وأن الأوغاد تركوه عاريا دون حراسة. يزداد الخمش فيتضاعف الخوف، يرتمي فوق الأرض، يتمدد بمحاذاة السرير.

(اليد الغادرة تصر على فتح النافذة)

يخشى أن يفلح الغادر، وأن يطل رشاش من النافذة، سوف يفرغ لهب حقه في الجسد الضخم الذي يعجز صاحبه عن طلب النجدة، ينخلع قلبه ويكاد أن يصرخ لكنه يكبت ذعره، لا يريد أن يحدث صوتا يؤكد على وجوده.

(لكن مكاني تحت السرير غير آمن)

لو أفلح الإرهابي في دخول الحجرة سوف يراه مرميا تحته، ساعتها لن ينقذه أحد، تمر الثواني بطيئة ولا يتوقف خمش اليد للنافذة، يحاول أن يستجمع فلول الشجاعة الهاربة، يزحف ببطء خارجا من تحت السرير، يتخذ من السرير ساترا، ويمد يده أسفل الوسادة، المسدس لم يغادر مكانه، يقبض عليه وبسرعة يشهره في وجه النافذة، يطلق رصاصتين ثم يأخذ نفسا عميقا، يستنفر حاسة السمع، لا يتأكد من توقف صوت الخمش، ربما رصاصاته طاشت، يضغط الزناد مطلقا ما تبقى في مسدسه من رصاصات، يرهف السمع، يتأكد من غياب الخمش، يشعر بالزهو، ببطء يتجه صوب النافذة، يمنى نفسه بمراى الجثة الغادرة غارقة في الدم، هي فرصة أتته لتعيد إليه الأضواء المنحسرة.

يفتح النافذة بثقة، يطل برأسه مبتسما لكن الابتسامة تغيض فجأة، فقد رأى أسفل النافذة جثة قط نازف.

أغسطس 1991

تفاءل وإلا قتلتك

لم أفكر في الحرب حينما قررت أن أفعل شيئا، كانوا يقولون وداعا للسلاح، وكنت أعرف أنني ما زلت تلميذا يمتلك أقلاما وأوراقا، لذا قررت أن أكتب.

فكرت كثيرا ثم كتبت مقالا في السياسة لم يتحمس أحد لنشره، اتهموني بالسذاجة وقالوا: "خليك في مذاكرتك". أيدهم الجميع: الجد والأب والأم وكل الأهل والأصدقاء، قلت لنفسي إن الكل لا يجمعون على باطل، فقررت أن أخليني في مذاكرتي ومزقت ما كتبت.

ذاكرت كثيرا قبل أن أفتح التلفزيون لأسري عن نفسي، وجدت رجلا ضخما يحتل الشاشة، كنت أرى صورته في المجلات وعلى أغلفة كتب لم أحبها ولم أكمل أي منها، لم يعجبني حديثه كذلك فأغلقت التلفزيون، قلت لنفسي أن بوسعي أن أكتب قصصا أفضل من تلك التي يملأ بها رفوف المكتبات، فعدت لأوراقي وأقلامي وأخرجت من رأسي بشرا ملأوا الصفحات.

أعدت قراءة ما كتبت فتوجست، وجدت صفحتي تطفح بالمرارة،
هكذا أمنح الفرصة لمن يتهمني بالسوداوية والانهازامية، أمسكت بالأوراق
ناويا تمزيقها والتخلص منها لكن قلبي لم يطاوعني.

عدت إلى التلفزيون ولم يكن الكاتب الضخم قد غادر الشاشة، كان
يلهث وهو جالس، اقتربت من الشاشة وهمست في أذنه بجمليتي مديح
كاذبتين، انتشى وهز رأسه فرحاً، فتشجعت وطلبت رأيه فيما كتبت،
فضحك ببلاهة قائلاً: ليس الآن.

تربصت به حتى عاودت الكاميرا الوقوف أمام وجهه، فانقضت
على أذنه وأفرغت فيها قصتي، بان عليه الغضب وسقطت ابتسامته
اللزجة بين قدمي المذيع، انحنى بسرعة ليلتقطها، ترك عينيه بين ركبتي
المذيع قصيرة الثوب بينما يدها تمسحان الأرض بحثاً عن الابتسامة،
ولما وجدها دسها في جيبه، ولما لكزته المذيع تباطأ في استرداد عينيه
من بين ركبتيها.

أخرج الكاتب الابتسامة من جيبه، نفضها وأعاد تثبيتها على شفتيه، ثم
عاد لحديثه اللاهث، قررت أن أسترضيه وأن أزيد من لهاته، فسرقت
علبة سجائر أبي ودسستها في جيب الكاتب، ثم غافلته وقبضت ثانية على
أذنه لأعيد إفراغ قصتي فيها، نهض بغضب، فشلت المذيع في تهدئته،
أمسكت بيده وهي تطالبه بمعاودة الجلوس، لكنه لم يهدأ وقفز من الشاشة،
حاولت الهرب لكنه لحق بي، حاصرني في ركن الحجرة، أشهر مسدسه
أمراً بأن أريه أوراق، مرتجفا ناولته الأوراق، لم يمسه، أمرني بأن
أمزقها إرباً، ولما ألقيت بالمزق في سلة القمامة هدأ قليلاً، ربت على

كتفي قبل أن يذكرني بحدثة سني وسذاجة تفكيري، حذرنى من خطورة الأدب الهدام على كاتبه وقارئه وعلى عموم الوطن.

وعدته ألا أعود للكتابة، لكنه عاود التريبت على كتفي، نصحني بمعاودة الكتابة، بشرط أن أكون متفائلاً، عاود إشهار مسدسه في وجهي قائلاً: تذكر يا هذا، تفاعل وإلا قتلتك، يكفي بلدنا ما فيه من قانطين مقنطين، ولن يجتاز الوطن محنته إن لم نكن جميعاً من المتفائلين.

قال كلاماً كثيراً لم أسمع، ولما انتهى كلامه نفذ غضبه، سألني بحياد:

- أين نحن الآن؟

- في أبي النمرس

- كيف أعود إلى القاهرة؟

أشرت إلى التلفزيون قائلاً:

- كما جئت

نبهني إلى أن الإرسال انتهى وها هو التلفزيون يوش، اتهمني بأنني أضعت عليه طريق الرجوع كما أضعت عليه وليمة كانت في انتظاره بعد البرنامج، أخذته من يده وقدته إلى الثلاجة، فطالبني بأن أدعه لبعض الوقت على أن أعود بكوب شاي وبقصة أو قصيدة بشرط أن تكون متفائلة.

وبعد ساعة عدت لأجد الثلاجة خاوية، تجشأ وأخذ مني كوب الشاي، وقرأت عليه ما كتبت، فأبدى إعجابه بالمقطع الأخير في القصيدة

خصوصا تشبيه الدم العربي بالشرابات الذي شربه السفير الاسرائيلي في حفل زفاف بأبي النمرس.*

23 يوليو 1985

* في عام 1980 وقبيل اغتيال السادات بأسابيع قلائل حضر السفير الصهيوني "الياهو بن اليسار" فرحا نمرسيا برفقة الفنان سمير الاسكندراني الذي كان بمثابة عم للعريس.

كان جميلا

1

كان الطائر جميلا، والطفل الوحيد يراقبه وهو يحاول الانفلات من الغرفة المغلقة. كان الطفل سعيدا لأن النافذة المغلقة تصد الطائر عن الانفلات فيظل يضرب فضاء الحجرة بأجنحته مزركشة الريش. يتربص الطفل اصطدام الطائر بزجاج النافذة لكنه يفلح دائما في تفادي الاصطدام، في لحظة يغير اتجاهه، ويواصل طيرانه صوب كل الجهات.

2

يحبو الطفل مقلدا الطائر في تخبطه وحيرته، يتعثر في لعبه التي تملأ أرض الحجرة، لا يمتلك دأب الطائر فيتعب بسرعه ويغزوه شعور بالملل، يركن إلى جلسته ويظل ممسكا بدمية لحسان مكسور، يرميها ويتابع إصرار الطائر على الانفلات، تتحرك رأسه في كل الجهات تبعا لحركة الطائر، لا يتعب الطائر والطفل لا يحفظ توازنه، على الظهر يسقط، يستريح لرقدته ويحدق في السقف، ينتبه لمروحة لا تكف عن

الدوران حول نفسها مصدرة أزيزا مزعجا، يراها كطائر كبير فينسي قليلا طائره الصغير المزركش.

3

الطائر أدركه التعب فسكن قريبا من الطفل يلتمس بعض الراحة، مد الصغير يده محاولا الإمساك به، رجل الطائر تخمش كف الطفل فيتراجع بينما يعاود الطائر محاولته للانفلات من أسر الحجرة. يتابعه الطفل وهو يرتفع باتجاه السقف، يرى الطائر المعدني الضخم في نوبة توحشه، يصيد الطائر المزركش الصغير، يخبطه بجناح ويتلقفه بأخر فيتطاير الريش المزركش. يتساقط بعضه فوق رأس الطفل الذي لا يدرك حقيقة ما حدث لكنه يشعر بالفزع، تغيض ضحكته، ويحبو نحو حطام الطائر الذي هوى، يمسك به، لم يجفل الطائر ولم يخمسه، ثمة شيء غادره وأفقد الطفل الشعور بالبهجة، يلقى بحطام الطائر ويشعر بشيء لزج يلطخ كفه، ينظر فيرى الكف احمرت فيصرخ ويصرخ.

27 أغسطس 1990

دنياه الجميلة

كانا يسيران صامتين، الحبيبة الحسناء لاحظت شروده، سألته مداعبة:

- من تلك التي شغلتك عني؟

لم يرد إلا بابتسامة باهتة، وهي لم تدعه يركن إلى الصمت:

- تزعم، في بعدك عني، أنك لا تفعل شيئا سوى التفكير فيّ، والآن ونحن معا تشرد مبتعدا عني، حتى عيناك تحدقان فيّ لكن أشعر أنهما مصوبتان بعيدا عني فلا ترياني

وجد نفسه مجبرا على الرد:

- بالي لا يشغله سواك، وعيناي لا تريان غيرك

- فيم شرودك إذن؟

- فيك

- أنا؟

تضحك متعجبة، وهو يواصل كأنها لم تقاطعه:

- وأنت معي أكون آخر غير الذي أعرف وتعرفين، يهبط علىّ الوحي
تجد نفسها مضطرة أن تقاطعه:

- الوحي أم الوهم؟

وهو يواصل الكلام وكأنها لم تقاطعه:

- جمالك وحيي لك يرياني الوجود جميلا، أريد أن يشترك كل الخلق
معي في رؤية هذا الجمال النادر
- هكذا؟

- أريد أن أرسم لوحة أسميها "الدنيا الجميلة" أجسد فيها ما أستشعره
من جمال ونحن معا
- وماذا ترسم فيها؟

- مفردات حياة أتمنى أن نعيشها معا .. واحة تضمنا

- ترسم مكانا تود الهروب إليه، ترسم وهما يجسد عجزك

- أرسم ملامحك الجميلة، عيناك، وهذه الحديقة، وتلك الشجرة بالذات
سوف أمنحها مكانا في اللوحة، أتذكرين أول لقاء لنا، جلسنا في ظلها،
مازالت تمنحنا سترا، تحجبنا عن أعين الوشاة .. أتذكرين يوم رسمت
علي جذعها قلبين متعانقين ورفضت أنت أن أكمل الرسم بسهم يخترقهما
معا

- أنظر جيدا، لن تجد للقلبين إلا أثرا باهتا، مرت أيام وشهور وليس
لنا مكان إلا الحديقة، تعجز عن كل شيء حتى عن تلبية رغبتني بأن
ترسمني.

يراها تتباعد، يناديها فلا ترد، يلاحقها، يمسك يدها فتنتزعها من كفه غاضبة:

- دعني وحاول أن تفعل شيئا، على الأقل حاول أن ترسم دنيالك الجميلة

رأته يقترب من شجرتهما، ينفذ ترابا يغطي على القلبين المتعانقين، يشرع فرشاته ويمنحهما لونا أبيض، يقف ويثبت اللوحة البيضاء، يشرع فرشاته ثم يتوقف، يتلفت بحثا عنها، كانت تنظر إليه من خلف شجرة أخرى، لمحها فابتسم، ورسم شجرتين، بينهما وجه الحبيبة، بدا له صغيرا، فرشاته لم تترك اتساع عيني الحبيبة، اتساع قادر على أن يحتوي العالم كله، توقف قليلا ثم أشرع فرشاته، لم يرسم شيئا، ليس هذا ما يريد، وكانت الحبيبة قد اقتربت، وقفت خلفه تحديق في اللوحة، أنفاسها لفحته، نظر لها فنطقت:

- هل اكتملت لوحتك

- لا أعرف، لكن لا أستطيع أن أضيف لها

- اكتفيت أم عجزت؟

- لا أعرف

- دنيالك الجميلة دميمة.

- ليست دميمة لكن شيئا ما ينقصها.

- ما هو؟

يحدق في اللوحة ولا ينطق فتواصل:

- لا أعرف، ربما شيء لا أدرك كنهه.

- هل يمكن أن ترسم كل هذه المساحات الخضراء، وتملأها بالزهور، ولا تجد مكانا لنهر يرويها ويسع شاطئه المحبين، أو على الأقل ارسم كوخا للعاشقين.

- هل تعرف ما هو الشيء الوحيد الصادق في لوحتك؟

- وجهك

- ليس مجرد الوجه، صدقت حين رسمتني وحيدة، بدونك، فاتك أن ترسم نفسك، هذا ما ينقص اللوحة، ينقصها أنت.

تجهم لملاحظتها، وغمره أسى، أرادت أن تخفف عنه فأشارت إلى شجرتهما:

- أنظر شجرتنا يسكنها غراب أسود، يمكن أن تمنحه عشا في اللوحة.

- دنيانا لن تعرف الغربان، سوف أملأ الأجواء كلها بعصافير من كل لون، وسأحفر بين الشجرتين مجرى للنهر.

فوجئ بها تضحك، صوت ضحكتها يعلو وهي تبتعد، تشير له قائلة:

- سأنتظرك هناك، عند الضفة الثانية للنهر، وعليك أن تعبر النهر باتجاهي.

ابتعدت، فلم تره وهو يرسم النهر، فلما انتهى ناداها للتنزه على شاطئه، لم تغادر جلستها تحت الشجرة وقالت بدلال:

- هيا اخلع ملابسك وانزل إلى النهر، ولتعبره سابحا باتجاهي.

قال ضاحكا:

- تطلبين المستحيل، تعرفين أنني لا أجيد السباحة، اصبري قليلا،
سوف أرسم لك معبرا

- كوبري إسمنتي، أرجوك لا تفعل، كم أكره الإسمنت والحديد
والدخان

ترك الفرشاة واندفع ناحيتها، تجري قبل أن يصل، تراوغة وتجري،
وهو من خلفها يجري، يتضحكان ولا تتوقف عن الدوران حول
الشجرتين، ويظل يتبعها ويهتف باسمها.

ولما خفت صوته ونأى توجست وتوقفت، رآته وقد عاد إلى
شجرتهما، كان جالسا يلهث، عادت إليه مادة يدها، أمسك بها ونهض،
ولما قصدا اللوحة وجدا الغراب ينق وقد أكمل ما ينقصها، فقد تخفف
من فضلاته فوق الشجرة، بعضها طال اللوحة، واحتل مساحات شاغرة
بين الزهور والعشب الأخضر.

ابريل 1988

ليلى تأكل الضفادع

1

احمر وجه قيس خجلا وهو يقول لعمه:

- زوجني يا عم ليلى

واستشاط العم غضبا وهو يصيح :

- سبق أن قلت لا مرارا.

- ليلى يا عم تريدني

- بل وردا تريد فهو العائد من بلاد الفرنجة محملا بالحقائب والأموال.

2

لما زفوا ليلى إلى ورد نظم قيس قصيدة، قرر أن يسمعها لليلى، تسلق سور بيت ورد، سمع أصواتا محمومة ، فعلا نشيجه، سمع ليلى تنادى وردا بالحبیب فقرر حرمانها من سماع القصيدة، عادت الأصوات

المحمومة فقرر أن يفسد عليهما ما تبقى من الليلة، فكر كثيرا ثم قرر أن يكون ضفدعا، ولما صار تقافز في حديقة البيت وهو ينق.نقيقه الموتور ملأ الآفاق، أزعج ليلي فأبعدت وردا، أقسمت ألا تدعه يلمسها إن لم يخلصها من الضفدع الملعون.

3

يقفز الضفدع الضخم وفي أثره ورد يقفز، أتعبه الضفدع كثيرا، ولولا جدية تهديد ليلي لنكص. جلس يستريح قليلا قبل أن يعود لمطاردة الضفدع لكن ليلي وكزته بلسانها، ظل يطارد الضفدع حتى ظفر به، أراه لليلي منتشيا:

- أنظري كم هو كبير، سوف أصنع لك منه طبقا أجده في بلاد الفرنجة

يوليو 1989

إعدام ليلي

1

- مد يدك.

واجما يتلقى الأمر لكن اليد لا تمتد، يطأطي الرأس مشيحا بوجهه،
بينما أوامر العم تتواصل:

- خذ السكين، ارفع رأسك واجعلنا نرفع رؤوسنا.

2

" ليلي أمانة في رقبتك يا سعيد، لا تغفل عنها، ولا تنس أن أبيها هو
عمك الذي رباك بعد وفاة أبيك، وأمها أرضعتك من لبنها".

3

يراها ملقاة في ركن الحجرة، مغلولة اليدين بحبل غليظ، شعثاء
محزونة لا شيء فيها من ليلي التي أحبها، ذهب ألق عينيها، ماتت فيهما

الحياة، يدرك هول ما فعل، يسيل ندمه دموعا كأنها كنهر من ملح.

4

" لماذا يا سعيد؟ ليت لبن أُمي في جوفينا كان سما".

5

عينا الأم تطفحان أسي، وببدها تضغط قلبها الموجوع، بينما عيني الأب تطفحان شررا.

6

" قتلتني الوحدة، ومسكني كان صحراء قاحلة حتى سكنته ليلي، لم تكن أبدا أختي رغم قولهم عن اقتسامي معها لبن الأم، أعادت بعثي وخضرت صحرائي".

7

- اقتلها
-
- لم تكن رجلا
-
- لم تصنها ولم ترع الأمانة

- ادفع عنا العار

- اقتلها

8

"فوجئت ليلي حينما شكّا لها من أمها، قال أنها عذبتّه حين أرضعته،
وازدادت دهشة ليلي حينما أضاف: أرضعتني فحرممتني منك".

9

تئن ليلي، صامته تبكي ولا يغادرها الدهول.

10

" حاولت ليلي أن تقاومه، لكن الصدمة أضعفتها، في البدء ظنت الأمر
كابوسا، استغاثت بسعيد غير دارية بأنه هو نفسه الكابوس، فاحتبست
الكلمات ولم تغادر فمها المفتوح" .

11

- لا تبكي كالنساء

- أما من حل آخر؟

- اقتلها

12

"كانت تلطم خديها وتسأله لماذا؟ ولم يكن لديه أي جواب".

13

- زوجها لي

- هل جننت، إنها أختك

- أما من حل آخر؟

- اقتلها

14

"تلوم نفسها لأنها رفضت الزواج وأصررت على دخول الجامعة، أيدها سعيد وساندتهما الأم حتى رضخ الأب وأوصى سعيداً".

15

- هل فرغت شوارع المدينة من سيارة مسرعة تدهسها؟

-

- هل رفض النيل أن يحتويها؟

-

- لم جئت بها حبلً؟

-

- اقتلها

16

"ليلتها طرق الباب فأذنت بالدخول، أدهشه ألا يجد بابها مغلقاً من الداخل، سألها:

- ألهذا الحد تشعرين معي بالأمان؟

ابتسمت قائلة أنه مجنون، وأن نوبات جنونه المتواترة تفرعها".

17

يمسك بالسكين، يقول في نفسه: لقد قتلتها من قبل فهل تموت مرتين؟

18

"يوم خروجها بصحبة سعيد استوقفهما الأب، مسح على رأسها، استشعرت حنانه للمرة الأولى، أعاد التأكيد على سعيد ألا يغفل عنها، فأشار إلى عينيها، وحاول الأب أن يداري دمه فصرخ في الأم ألا تبكي".

19

يقترّب من ليلى ممسكاً بالسكين، تنظر في عينيها فيترجع، تأتيه صيحة

الأب:

- اقتلها.

20

"كان الباب مواربا، وكانت تبدل ثيابها، وكان سعيد يرمقها في صمت، فلما انتبهت للذنب في عينيه صرخت، أغلقت الباب بغضب، هرع إلى حجرته، ارتمي على الفراش لاهثا وكأنه طاف بالكرة الأرضية ركضا، ليلتها لم ينم من الخوف والرغبة، وظل أسبوعا يسترضيها حتى سامحته".

21

عاود القبض على السكين، طعنها فصرخت بوهن، أهتها الضعيفة زلزلت كيانه، فعاد طعنها، أهتها الثانية كانت أشد ضعفا، نطقها وماتت، عندها فقط صرخت الأم وانتبه الأب إلى شيء فاته، لم تنطق باسم الفاعل وهو لم يصر على استنطاقها، كل ما كان يعنيه أن يوارى العار بموتها، يقسم ألا يرتاح قبل أن يعرف الفاعل ويقتص منه، يستجوب سعيدا الذي يلوذ بالصمت، ومع إلحاح عمه يجري مغادرا المكان وهو يصرخ:

- أعرف الفاعل يا عم، أعرفه، والليلة سوف أقتله.

ديسمبر 1986

دم العصفور

لم يترك المهرج شيئاً يظن أنه سيضحك الملك إلا وفعله. ضحك الملك كثيراً، أمر بأن يعطى للمهرج من خزانة المملكة مثل وزنه ذهباً، أيضاً أصدر الملك أمراً ملكياً بتلقيبه بكبير مهرجي المملكة.

دخل الوزير الذي كان غائباً. همس في أذن الملك بكلام أغاظه، فكف عن الضحك ووقف ينفخ ويضرب كفا بكف ولما قال الوزير:

- ما العمل؟

- أدخلهما.

بغيط نظر الملك تجاه الرجل الأول. سله:

- من أنت؟

- كاتب.

سأله الملك وهو يشير إلى الرجل الثاني:

-لم أثرت الناس عليه؟

- لأنه يضلّهم.

كتم الملك سخطه ثم سأل الثاني:

-وأنت؟ من أنت؟

أجاب وهو ينحني:

- أيضاً كاتب يا مولاي.

سأله الملك وهو يشير للرجل الأول :

- وأنت لم شتمته وحاولت الاعتداء عليه.

أجاب وهو يزيد من انحناؤه:

- لأنه أخطأ في حقك يا مولاي. كان يثير رعاياك عليك. ولأنني من رعاياك المخلصين فقد وجدت أنه من واجبي تأديبه.

* * *

صمت الملك لحظات ثم تحول للكاتب الأول وهو ينظر له نظرة تنبئ. بما يمكنه له من شر، فهم الوزير نية الملك فهمس في أذنه بضرورة معاقبة الاثنين حتى لا يتعاطف الناس مع الأول، فكر الملك قليلاً ثم أمر، فجئ له بالساحر، انحنى الساحر حيث قبل الأرض بين قدمي الملك وقال بتملق:

- عبدك يا مولاي وطوع أمرك .

وقال الملك وهو يشير إلى الكاتبين:

- أفعل بهما ما تريد. لكن لا تبقيهما بشرا.

نظر الساحر تجاه الكاتب الأول. دار حوله دورتين ولم يكمل

الثالثة، وقال للملك:

— هذا يا مولاي أستطيع أن أجعله عصفوراً

قال الملك:

— فليكن.. على أن تكسر جناحه.

* * *

قال الساحر كلاماً لم يفهمه أحد. وأتى بحركات لم يدركها أحد ثم لمس الكاتب الأول بعصاه فأصبح عصفوراً مكسور الجناح، أمر الملك فجاء له بقفص ذهب. اعتقل داخله العصفور مكسور الجناح.

* * *

نظر الساحر تجاه الكاتب الثاني، دار حوله دورة واحدة...

وقال للملك:

- وهذا يا مولاي.. يجب أن يكون بغلا.

أشار الملك بما يفيد الموافقة، فبدأ الساحر طقوس التي انتهت بالثاني وقد أصبح بغلا.

عندما عاد الملك للضحك.. قال في نشوه:

الأول لن يتعبنا بعد الآن والثاني لسنا في حاجة إليه. لدينا مثله كثيرون.

أشار الملك للمهرج ولما مثل بين يديه وهبه البغل فركبه خارجا وتبعه الوزير والساحر.

انفرد الملك بالعصفور، خاطبه بسخرية:..

-كيف حالك الآن؟

- أتستطيع الآن أن تكتب؟

أشار العصفور أن نعم.

بغيط أخرجه الملك من القفص وقال:

- أرني الآن كيف تكتب؟

نزع العصفور إحدى ريشاته. غمسها في دمه وكتب:

- يسقط الملك

مغتاضا أمسك الملك بالعصفور، بعنف ضم قبضته عليه، سمع طقطقة العظام الرقيقة.. ألقاه والدم يسيل من منقاره.

* * *

دخل الوزير مهرولا. وهو يقول:

- انظر يا مولاي ماذا فعل البغل.

توجه الملك إلى الشرفة. فنظر إلى البغل.. وجده قد أفرغ فضلاته أمام مدخل القصر.

كاد يدافع عنها بقوة، لم يسمح لأحد بأن ينظف مدخل القصر. أشار الملك للحراس بأن يدعوه حتى يرى ماذا يفعل؟

تركوا البغل فمد طرفيه الأماميين. أمسك بهما روثه وكتب "يحيا الملك".

ضحك الملك كما لم يضحك من قبل، وبسعادة قال للساحر:

- أعدده رجلا.

مارس الساحر طقوسه وأعاره رجلا. صعد الرجل الذي كان بغلا إلى الملك، انحنى مقبلا الأرض بين قدمي الملك.

أشار له الملك قائلا:

- انهض أيها البغل ... فقد عينتك وزيرا.

1986/8/23

حكاية المدينة التي أصبحت سجنا

دقات طبول عنيفة أيقظت الناس. صحوا مفزوعين. كل منهم سأل الآخر عما حدث، لكن أحدا لم يجب. وبعد انتظار طويل مر المنادى ممتطيا حماره، وممسكا بمكبر صوت في يده اليمنى، بينما ارتفعت يسراه في محاذاة الأذن اليسرى.

لما تكلم المنادى علم أهل المدينة بما حدث. وحكى كل منهم للآخر عن المساجين الخطرين الثلاثة الذين قتلوا حارسهم وفروا من السجن. فأصاب الفزع الجميع، وراح كل منهم يحتفى بالآخر وبيئته خوفه.

عمت القوضى المدينة. ولذا مر المنادى مرة أخرى راكبا حماره. أمرهم بأن يذهب كل منهم إلى عمله، ومن كان منهم بلا عمل يلزم بيته، وأبلغهم بضرورة الإدلاء بكل المعلومات التي يعرفونها عن الهاربين. هددهم بأن من لا يفعل ما يؤمر سوف يلقي شديد العقاب.

ولما ازداد فرعهم حاول أن يطمئنهم فأكد على أن الهاربين سيبيتون ليلتهم في السجن بعد إعادة القبض عليهم، ولذا أعاد أمره للجميع بأن يهدأوا ويذهبوا إما إلى أعمالهم وإما في بيوتهم.

* * *

لما انتهى اليوم نام أهل المدينة مفزوعين لأن المنادى لم يخبرهم بنبأ القبض على الهاربين.

* * *

فى اليوم التالى قام أهل المدينة من نومهم ليجدوا سورا عاليا أقيم حول المدينة. كل منهم سال الآخر عن السور.. من بناه؟ ومتى؟ وكيف؟ لكن أحدا لم يجب.

بعد انتظار طويل جاءهم من خارج المدينة صوت.

كان المتحدث واحدا من الهاربين. قال:

- لقد سجنتمونا عاما وسنسجنكم الدهر كله.

بوغت أهل المدينة. خروا مغشياً عليهم.

* * *

فى الصباح الثالث قام أهل المدينة من نومهم كي يتدبروا أمرهم، ويفكروا فى كيفية الخروج من سجنهم. أحدهم حاول تسلق الجدار. لكن الجدار كان أملسا فسقط ولم يقم. آخر حاول أن يثقب الجدار فجاءته - لا يدرى كيف ولا من أين؟ - رصاصة ثقت صدره.

طافوا جميعا - ما عدا القتيلين طبعاً - بالسور. اكتشفوا بابا حديديا ضخماً عند الطرف الشمالى للمدينة. بضراعة دقوا الباب. قالوا:

- افتحوا ونحن عبيدكم.

جاءهم الرد:

- لن نفتح لكم الباب إلا بعد أن تلقوا لنا برأس رئيس المدينة.
وصلت الأخبار إلى رئيس المدينة. فلاذ بالفرار. وظلوا طوال اليوم
يبحثون عنه. وفي الصباح الرابع ألقوا برأسه من فوق السور. لكن من
بالخارج لم يفتحوا الباب.

وفي الصباح الخامس والخمسين وقف تاجر تجار المدينة بالباب..
زعم بأعلى صوته. اقترح عليهم أن يدعوه يخرج بأمواله ليتاجر بها في
المدن الأخرى ولهم ربع ما يكسب.

قال أولهم: لا

فقال التاجر: نصف ما أكسب.

قال الثاني: لا

سكت التاجر، فقال الثالث: تسعه أعشار ما تكسب.

وبعد مساومة خفضوا نصيبهم إلى سبعة أعشار ما يكسب، ولما وافق
التاجر أخرجوه بأمواله.

* * *

في الصباح السادس بعد المئة الأولى وقف راعي الغنم بالباب. زعم
بأعلى صوته. اقترح عليهم أن يتركوه يرعى أغنامه خارج المدينة التي
أجذبت على أن يذبح لهم كل يوم خروفا.

قال أولهم: لا

فقال الراعي: أذبح خروفا وشاه.

قال الثاني: لا

سكت الراعي فقال الثالث: تذبح خروفا وشاتين.

ولما وافق الراعي أخرجه بأغنامه.

وفى الصباح السابع بعد المئة الثانية لم يكن قد تبقى للراعي من قطيعه سوى خروفا واحدا وشاتين اثنتين. تحسر على القطيع الذي كان. الحسرة أشعلت نار حقه، عندئذ فقط تحرك عقله. فكر في أن يضع لهم السم في طعام اليوم الأخير.

وفى الصباح التالي صحا أهل المدينة على صوت الراعي. قال:

- إفرحوا وهللوا، فقد خلصتكم من الأشرار

هللوا له وهتفوا باسمه. لكنه قاطعهم قائلا:

- لا أريد هتافكم بل أريد ثمن خرافي التي أكلوها، وفوقه مثل الثمن للخراف التي كان يمكن أن تولد، ومثل الثمن مقابل الحسرة التي كنت أتجرعها كل يوم وأنا أقدم للأشرار خرافي وشياهي.

تبرع كل منهم بما يستطيع لكنهم لم يكملوا المبلغ المطلوب، فباتوا حزانى.

وفى الصباح العاشر بعد المئة الثانية صحووا على صوت المنادى يدعوهم لمقابلة أغنى أغنياء المدينة. قال:

- سأدفع لكم المبلغ كله. وليسترد كل منكم ما دفع.

هللوا له وهتفوا باسمه. وقف يسمع حتى انتهوا ثم ابتسم وهو يقول:

- سوف أدفع المبلغ كله، إن وافقتم على شرطي

زاموا وهمهموا ثم صمتوا منتظرين أن يذكر الشرط..

قال:

- أن تبايعونني رئيساً للمدينة.

* * *

وبعد صباحين طاف المنادى معلناً نبأ مبايعة الرئيس الجديد ويأمر الجميع برفع صوره على كل جدران المدينة. وفي هذه الليلة ناموا مسرورين لأن رئيس المدينة تسلم مفاتيحها من راعي الغنم.

* * *

وفي صباح اليوم الأول من المئة الثالثة ذهبوا إلى رئيس المدينة مقترحين هدم السور، فقال إنه سيتشاور في الأمر مع كبار رجال المدينة وسيصلهم الرأي عن طريق لمنادى.

وفي صباح اليوم الأول من المئة الرابعة صخوا على صوت المنادى يعلن رفض رئيس المدنية لهدم السور لأنه يدفع عن المدينة الأعداء، كما يمكن أهلها من طرد الخارجين على النظام.

وفي الصباح التالي طاف معلناً إن الرئيس يطلب حراساً لباب المدينة بماهية كبيرة. عندئذ هرعوا جميعاً إلى مقر الرئيس، يداعبهم الأمل في شغل الوظيفة.

11 نوفمبر 1987

مطاردة

1

منظر غريب وفريد إن رأيته مرة فلن تراه ثانية وإن لم تكن قد رأيته فقد فانتك الفرصة إلى الأبد،
ذلك كان بداية الهجوم.

كل رجال القرية وخاصة المتزوجون منهم خرجوا لصلاة الفجر وهم مسلحون بعصيهم، بعد الصلاة ألقى الشيخ على أسماعهم كلمة قصيرة حثهم فيها على الخروج للدفاع عن شرفهم الذي أذته القبط. لم ينس أن يدعو لهم بالنصر.

2

لم ينشأ العداء بين القرية والقبط فجأة، بل له جذوره القديمة، يقال إن الشرارة الأولى انطلقت يوم صا عوضين من نومه ولم يجد امرأته في الفراش. ناداها ولما لم يسمع ردا، قام بنفسه ليبحث عنها.

رأى ظهر رجل يغادر البيت. ضرب الزوجة.. علا صوتهما. صحا النائمون. سلوهما. أجابت هى، قالت: إنها غادرت الفراش كي تبول وفجأة ظهر لها قط أكبر من كل القطط التي رأتها قبل ذلك، خافت من القط ففكرت أن تعود لتوقظ (عوضين). خافت أن يشتمها لأنها تخاف من خيالها كما يقول. فلم توقظه ولم يمهلهما القط حتى تفكر في ذلك ثانية. هجم عليها. ألقاها على ظهرها، وفجأة تحول رجلاً، شلتها المفاجأة فاحتبست بداخلها الكلمات ولم تستطع ال استجداد بأحد، حتى فعل بها الرجل الذي كان قطاً مثلما يفعل عوضين.

3

كاد الناس أن يكذبوها، لولا أن قالت إحدى اللجارات ما أكد قول زوجة عوضين (هى فتاة لم تتزوج بعد)، قالت لأم عوضين إنها رأت قطاً جائعاً فعطفت عليه وأطعمته وأجلسته في حجرها. ولما نظرت في عينيه تحول إلى رجل، ودون أن تدري وجدت نفسها ملقاه على ظهرها. ساقاها فوق كتفيه.. ثم اختفى بعدما جعلها امرأة.. وفى الختام أقسمت على صدق ما تقول. قالت أم عوضين للجارة إنها تصدقها دون أن تقسم، ولم تتكلم أخت عوضين لأنها كانت مشغولة بتخيل القط الذي سوف يفاجئها.

4

مرت أيام وأخت عوضين تنتظر قطها ولما لم يزرها قط قررت أن تبدأ هى، اصطادت قطاً. (قلبت) فوقه حلة. فوق الحلة وضعت حجراً

ثقيلاً حتى لا يهرب، ثم ذهبت إلى أمها لتساعدها في بعض ما تقوم به من أعمال. انتظرت طويلاً حتى استطاعت (التزويغ) من الأم.

جرت إلى الحلة. رفعت عنها الحجر ورفعتها عن القط. وجدته ميتاً. كادت تلطم نادبة حظها. كل القطط بسبعة أرواح إلا قطها، أو لعله فقد ستاً منها قبل أن تصطاده وها هي السابعة فقدتها قبل أن تنال ما تريد. فكرت وبعد قليل خرجت إلى الأم ممسكة بالقط الميت، قالت إنها تأرت لأخيها.. زغردت الأم، تجمع الناس حول البيت، خرج إليهم عوضين ممسكاً بالقط الميت، وحكى للناس عن أخته وكيف دافعت عن شرفها حتى قتلت المعتدى.

بعد أيام اصطادت أخت عوضين قطاً ثانياً، لم تنتظر حتى تزوغ من أمها. أسرعت إلى حجرتها وأغلقتها عليها من الداخل. انتظرت أن يهاجمها القط ولما لم يفعل هاجمته هي، خلعت كل ثيابها. رقدت، أمسكته بفخذيها. لم يفعل شيئاً. لم يتحول رجلاً. ضمت فخذيها عليه بقوة عله يستنار

انتظرت طويلاً وهي تضم فخذيها بكل ما تستطيع من قوة حتى كاد لهما أن يتداخل، لما ملت انتظار تحوله إلى رجل، أفرجت عنه وهي تندب حظها. في المرة الأولى اصطادت قطاً ميتاً وفي الثانية اصطادته عنيماً.

لم يقفز القط مبتعداً عنها لأنه مات بين فخذيها، ارتدت ثيابها وخرجت لأمها بالقط، زغردت الأم، وانتشى عوضين، وتجمع الناس و

5

تراحم الرجال حول بيت الشیخة عالیة.. دفعوا ما معهم ثمناً لأحیبة تمنع القطط، لكن القطط لم تمتنع، قالت أخت عوضین ناصحة النساء بأنهن یجب أن یسارعن بقتل القط قبل أن یتحول إلى رجل، فهو فی هذا الحالة یكون ضعیفاً، أما إذا لم یستطعن قبل ذلك فلا یجب أن تقاومن لأنه سیفعل ما یرید مهما كانت المقاومة.

6

أجتمع رجال القرية مع العمدة فی الدوار، تباحثوا فی أمور القطط التي ضاجعت نصف نساء القرية. لم یهتدوا إلى حل.

تركهم العمدة یشربون القهوة السادة - حدادا على شرف القرية - وصعد إلى زوجته. فتح الباب. لم یستطع الدخول. رأى رجلاً ملثماً یقفز من النافذة. لم یهاجمه. لم یناد الخفراء. خاف أن یفعل به شیئاً ما. یكفی ما فعل بالزوجة.

مسرعاً نزل إلى الرجال المجتمعین فی دواره وقد ازداد تصمیماً على إيجاد حل لمشكلة القطط.

7

لاحظ العمدة أن القط قد (جرت رجله) على الدوار. ضاق بعجزه عن فعل شیء یمنعه فقرر أن یخطب أخت عوضین لابنه.

فرح بقراره الذي سینقذ شرفه. ابتسم وهو یتخیل نفسه ممسكاً بالقط

الذي ستقتله أخت عوضين ويحكى للناس عن

8

فرحت أخت عوضين بخطبتها لابن العمدة. تمنّت أن تزف له قبل أن تضطر لاصطياد قط ثالث.

9

عارضت امرأة العمدة بشدة.. رفضت أن تدخل أخت عوضين دارها. أقنعت ابنها بذلك. خاف العمدة على نفسه من القط. أرسل في طلب شيخ الجامع. طلب منه أن يفعل شيئاً. فوعد أن يفعل بشرط أن يأمر العمدة كل الرجال بالذهاب إلى الجامع عند سماعهم لأذان الفجر.

10

وقبل صلاة العشاء كان المسجد قد امتلأ بالرجال، وكانت التريعة قد امتلأت بجثث القطط، لكن من المؤكد أن الجثث لم تكن الكل القطط.

1986/7/9

تكوين

1

كانت الإضاءة شديدة الوهج، فأغمضت عيني، حينئذ رأيتها.
كانت ترقص والموسيقى تصدح، آه، يا لروعته، لها طزاجة نسيم
فجر الحقول. ثوبها الوردي الشفيف بواح. قدها قد من نور، وأنا مبهور،
أهتف فتننتبه، تتلفت فتراني، تقبل علي، تصبح ملك يميني، ملمسها كان
ناعما، ناعما، ما أعذبها.

(هل أصبحت حقا في قبضتي؟) وددت التأكد، فتحت عيني فضاعت.
لم أجدها، مضت كومضة برق، هربت معها الموسيقى، وكانت يدي- لم
تنزل - ممدودة ناحيتها.

2

عادت الإضاءة قوية، تسقط فوق كفي، يبدو ظل الكف والأصابع
كعنكبوت وحشي، كلما حركت الأصابع يخطو العنكبوت. خطوة للأمام،

خطوتين للخلف. يغزوني خوف. أروم تمزيق أودية الليل السوداء التي
تتسربل بها شمس ما بعد المغيب.

تمتد يدي صوب الشمس، تصطدم بجرس ضخم، رنينه يدوي عالياً،
يملاً الأفق، كأنه ينادي أجراساً أخرى، تلبّي النداء لكن بصوت أقل علواً
فيبدو رنينها وكأنه رجع الصدى.

3

أسمع همهمات بشر لا أراهم، ثمة آهات مكتومة أو مكبوتة، ويستمر
رنين الأجراس، تتجاوب معه آلات وترية، ثمة آلات نحاسية أيضاً،
تتألف الأصوات كلها في هارمونية سحرية، تذوب الآهات في الهمهمات،
تصبحان حممة ثم دمدمة، عندها أراني ممتطياً صهوة جواد أشهب
يركض في أثر وهم.

4

عند عين ماء ترجلت، أرحت جوادي، تركته يرتوي، ورحت أنشد
ريبي.

شممت عطرها فهتفت باسمها، تكثفت الرائحة وتجسدت هي أمامي،
أنت تتهادي كغزال. وقفت قبالي للحظة، فلما هممت بالدنو جفلت،
هرولت مبتعدة، وأنا في أثرها أعدو، ألحقها ولا ألحقها. يدركني اليأس
فاكف، حينئذ تقف. تنظر ناحيتي، تبتسم وبعينها تومئ امرأة:

- أدن مني.

وكلما دنوت تتباعد، تراوغي وألاحقها فلا ألحقها.

5

أضننتني الهرولة فواسيت نفسي، قلت فلتقنع برؤياها. أقعيت إلى جوار شجرة، أسندت رأسي إلى جذعها، لفتني موسيقى لم أعلم مصدرها، لحن أعرفه، بسرعة أتذكره، هي شهرزاد، أعشق لحن كورساكوف، لكنه يخفت تدريجيا حتى يصمت، فجأة يلوح بيتهوفن، تدمدم ضربات القدر، تعود مقبلة تلك التي تهوى الثنائي.

تباغتني كلمات قصيدة شرعت في نظمها بعد الفراق وفشلت في إكمالها، أتممت محاولا التذكر:

- إن قلبي ما غوى

حين ارعوى عن الهوى

أسمع صوتا كصوتها يتصرف في الكلمات:

- إن قلبي ما غوى،

وعن هواكم ما ارعوى

أصمت فتصمت، وكانت الموسيقى قد صمتت، تعود الدمدمة، يعقبها صوت وكأنه دقات طبول حرب في غابة، يفزعها الصوت فتجري مفزوعة، أراني في أثرها أعدو، تراوغي وأتبعها صوب كل الجهات، وألاحقها فلا ألحقها.

6

ألهمت.

أتعثرت.

أبأس.

أسقط.

أحاول النهوض فأراها واقفة. دائرة من نور أمامي، هي مركزها، تعود الموسيقى صاحبة فترقص رقصة حرب الغابة، يزداد صخب الموسيقى، يبدو وكأن أياد أسطورية تقرع الطبول بعنف، صوتها يملأ المدى فتزوم ريح، وهي ما تزال ترقص في مركز دائرة النور، زوم الريح يشتد مثيرا الغبار، تحوطها الريح بغبارها، تدور راقصة، وكلما اشتدت الريح تزيد سرعة دورانها، أراها تتأهب للارتقاء، دوامة الريح والغبار تطوقها، تطبق عليها، أحاول إنقاذها، فلا أستطيع، واراها تضيع مني ، مرة أخرى تضيع.

7

الليل والبيداء، وأنا فوق حصاني تحوطنا ريح هوجاء، غبارها الرملي يصنع من حولي سياجا، أحاول تخطيه فيكبو حصاني.

أنبش في السياج حتى أفلح في إحداث فرجة، منها أخرج فأراني هائما في البرية. أسير مقتفيا أثر عطرها، لكن الريح تحوطني، وتظل تطوحني، تلهو بي حتى تمل فتتركني إلى جوار سور مرمرى لقصر منيف.

ألملم شتات نفسي، أجالس الحراس ثم أخالسهم والجا القصر.
أراها عارية ترقص، كسرى يقرع كأسه بكأس قيصر، يتضاحكان ،
يتابعان رقصها العاري بتشهي بالغ، وحين انتهت الرقصة صفقا إعجابا
ونشوة، قالوا في صوت واحد:

- سلينا ، نجبك

سمعتها تطلب رأسي.

أغسطس 1992

مكابدة

أغلقت الباب خلفي، وبسرعة عريت نصفى السفلى. أخشى ألا ينزل شيء كما حدث في المرة السابقة. لا بد من القذف حتى لا أواجه هذا الموقف مرة ثالثة. مرتان تكفيان. (وهل بإمكانني تجنب المرة الثالثة؟).

الرجل الواقف بالخارج ينتظر أن أخرج إليه، لم أرتح لملامحه، له ابتسامة خبيثة. أخشى أن يراني هكذا. أفكر في إنه بإمكانه أن يراني. أنظر من ثقب الباب. لا أجد عينيه على الثقب. أسند ظهري إلى الباب المغلق. أسد الثقب أمام عيون المتلصصين، يتكوم البنطلون والسرwal بين قدمي. يغطيان الحذاء. تبرز حافظ نقودي من جيب البنطلون. سوف أشتري هدية لامرأتي بعدما أخرج. (أخشى أن أنسى شراء الهدية). امرأتي تستحق أن تُهدى. تدافع عنى كثيراً أمام اتهامات أمها الظالمة. (لم أتأكد بعد من ظلم هذه الاتهامات).

أمها العجوز الخرفة تطعن في رجولتي. لم ينتصف بعد عام الزواج الأول، وتريد أن ترى ابنتها منتفخة البطن. في صباح ثاني أيام الزواج سألت ابنتها سؤالاً. فنكست ابنتها الرأس خجلاً ثم مدت يدها للام بالمناديل الملوثة بالدماء. (يد تحاول، والأخرى تمسك بالوعاء المعد لأخذ العينة)،

رأيت وجع امرأتي وقد احمر خجلا، سمعت زغرودة أمها المزعجة.
(لماذا تأخرت الرعشة إلحيمية؟).

بعد أسبوعين من الزفاف حزنت حماتي لأن الحيض أتى ابنتها.
نصحتنا بأن نفعل كثيرا حتى يحدث الحمل. (لم يحدث الحمل رغم أننا
عملنا بنصيحتها). أكره هذه المرأة، تنغص على حياتي. (لا زلت
أحاول).

أرى وجه حماتي يرتسم على بلاط الحمام. تحقق في. ترى ما أفعل.
(لا زالت الرعشة أليمة) أبصق عليها. يفر وجهها كالقار. أحاصره -
وجهها - في ركن الحمام. أدوسه بالحذاء. وجهها يتغطى بسروالي. أتذكر
ثقب الباب، الرجل المنتظر بالخارج يطل برأسه من تحت الباب. يسقط
الوعاء الفارغ من يدي بالأرض يرتطم. يحدث صوتا مكتوما أركله
فيطرد رأس رجل المعمل المطل من تحت الباب.

أنظر من ثقب الباب فلا أرى أحداً. (لا زلت أحاول). أعشق الأطفال.
أتمنى طفلا. حماتي أيضاً تريد ذلك وامرأتي، كلنا نريد ذلك الطفل، لكن
ماذا أفعل. فكرت أن أصطحب امرأتي إلى الطبيب. تمنيت أن تكون من
الأسياء ، ألا يكون هناك عائق، خشيت أن أكون أنا المعيب، ألا تنبت
بذوري، حماتي تتهمني. لو ثبت صحة اتهامها ستجعل ابنتها تطلب
الطلاق. أكره هذه المرأة. (لو كانت ابنتها هي المعيبة، هل أستطيع
الزواج بغيرها؟).

فكرت في أن أذهب إلى الطبيب بمفردي. لم أخبر أحدا بذلك.
أريد أن أطمئن على نفسي أولاً. (هل جف النبع؟). طلب الطبيب
تحاليلها، ورجل المعمل بالخارج ينتظر العينة، وأنا أحاول. في
المرّة الفائتة حاولت كثيراً لكن بلا فائدة، لما عدت وجدت

امراتي تتزين لي، قلت لن أحاول، خشيت أن لا أستطيع. لكنها لم تدعني. والمفاجأة أني استطعت، كان كل شيء عاديا حتى الحيض لم يخلف مواعده.

منذ أسبوع لم أقربها واليوم عدت ثانية. لا زلت أحاول، ولا شيء ينزل، لم يعد العضو منتصبا. ولا زالت اليد قابضة. هل أعجز ثانية؟ (هل ما ظننته النبع لم يكن نبعا، هل كان مجرد بركة ضحلة موحلة؟).

أسمع صوت امرأة بالخارج. تسل رجل المعمل:

- ماذا يفعل الذي بالداخل؟

أسمع رده الغاضب

- لا شأن لك بما يفعل.

- هل يوجد حمام آخر.

-لا.

- أرجو ألا أنتظر كثيرا.

لم أسمعه يرد عليها. أدركت أني تأخرت كثيرا. أعيد المحاولة. ألهث أعرق بغزارة رغم البرد. يتمدد الصقيع بداخلي. أشعر برأسي يكاد ينفجر. أضع الوعاء الفارغ على الحوض. أمسك جبهتي بيدي، تلسعني سخونتها، أرتجف. أود لو أخبط رأسي بالحائط.

أحاول من جديد. أسند ظهري إلى الحائط، تنن القدمان من طول الوقوف. أقعد على الأرض، تلسعني برودة البلاط. أستمر في المحاولة. أخشى أن أكون قد فقدت رجولتي. لم تعد يدي تقبض على شيء. يبرز

وجه حماتي، أطارده. أشد السيوف فيدفع الماء ليهبط بوجه حماتي. هذه المرأة تكرهني. ألعن ابنتها، وأود لو أعيد المحاولة. (لم أعد أستطيع).

* * *

أفتح الباب. يواجهن رجل المعمل. أمد يدي بالوعاء الفارغ. بحنان يربت كتفي. أسأله:

- هل حدث ذلك لغيري.

يطمئنني:

- يحدث كثيرا.

- لكنني فشلت مرتين.

- لم تفشل. يمكنك أن تأتي بالعينة من المنزل.

- وهل أستطيع؟

- لا تخف. مؤكد أن الخوف أو الخجل هو السبب.

أشعر أني ظلمته. أريد أن أعتذر له عن رأيي السابق فيه. ملامحه كشفت عن طيبته. أريد أن أبكي على كتفه. وأن أملأ الوعاء الفارغ بدموعي.

أغادر المعمل. وفي الخارج يلفحن الهواء البارد. وبغفوية تمتد يدي إلى مؤخرتي. أتأكد من أني ارتديت جميع ملابسني. تمسك يدي بقماش البنطلون تشده. أجرى في الشارع. يطاردني إحساس بأن مؤخرتي عارية.

أكتوبر 1991

فاطمة لاترقص التانجو

الليل موحش، بارد وكئيب، والطرقات خاوية، ولا صوت أسمعه إلا صوت حذائي يصفع الأسفلت.

* * *

كنت وحيداً أرتجف، والنوافذ مغلقة، بعضها مضاء.. أرى شذرات ضوء تسقط من خصائص النوافذ المغلقة على أناس مثلي، سهارى، يؤرقهم شيء ما. من خلف إحدى النوافذ تسلك صوت عبد الحليم، أرجعتني الأغنية لأزمة سحيقة، غمرني شجن فازداد الليل برودة. أسرعت في سيرى، لعلني أصل إلى مكان، أنتهي مما أنا فيه. اقتحمتني الرائحة. ثمة امرأة تصنع القهوة خلف نافذة ما، رائحتها تختلط برائحة البن. تلفني الرائحة. تدير رأسي فأرقص وحيداً فوق الأسفلت

* * *

مرقت من جانبي. رمتني بنظرة فأفقت. أقلعت عن الرقص وجريت

خلفها. لحقت بها. ناديتُ:

- أنت

توقفت:

- أنا؟

- نعم أنت

- هل تعرفني؟

فوجئتُ، وجمت، ثم أجبت :

- أشعر كأني أعرفك.. كأني عرفتكَ يوماً ما.. لكن هذا اليوم بعيد.
موغل في القدم كأن مر عليه ألف عام أو يزيد.

غاضت ابتسامتها الشاحبة، ولت مبتعدة، عدت ألاحقها، وفجأة وجدت
اسمها يغادر حلقي:

- فاطمة.

ابتسمت، فولت العتمة. لامست يديها.. آه.. دفء يديها أذهب عني برد
الليل. آه.. يا للدفء الحنون الحميم، كأن سنيني لم تعرف الشتاء يوماً.
الثلج بداخلي يذوب. يطفح عرقاً ودموعاً. مخضوض قلبي فأغني،
تضحك وتبادلني الغناء لحظة، ثم تسكت وتقول مداعبة:

- صوتك ليس جميلاً.

أشترط أن نرقص التانجو إن كففت عن الغناء، تسألني:

- هل تستطيع الرقص؟

- لا

قالت ضاحكة:

- أنا أيضًا لا أرقص التانجو

ضحكت وقلت:

- دعينا نتعلم

ضممتها فجفلت. صرخت في:

- من علمك الجنون؟

يدها فارقت كفي. سرنا صامتين فغزاني البرد. ارتجفت هتفت بها، سألت عم أريد؟ فطلبت كوبًا من القهوة. قالت بهدوء:

- سأفعل حينما يجمعنا بيت. حلمت ببيت يجمعنا. تغلق نوافذه في وجه البرد. تقدم لي القهوة، أغضب لأن القهوة بلا "وش" لكن اشربها وأسمع عبد الحليم يغني، نشاركه الغناء، أنا أيضًا أغني. لا تقول "صوتك وحش". أدرك أن الحلم طال. أفقدني الإحساس بوجودها. أردت أن أشركها معي في الحلم.

قلت:

- سوف نتعلم كيف نرقص التانجو

لم ترد. انتبهت. لم تكن إلى جوارتي.. ضاعت ثانية. وجدنتني أجري، أهيم في الطرقات. أبحث عنها. أظل أجري. أتعثر في قطعة سوداء، أركل القطة بغضب. تنتظر القطة عاتبة وتموء، أشعر بالغثيان. أقيء كل ما بداخلي من إحباط، والقطة لا تزال تنتظر لي وتموء، أجلس إلى جوارها.

أُتَحَسَّسُهَا.

أَسْأَلُهَا:

- هل رأيت فاطمة؟

أَسْمَعُهَا تَمْوًءُ، فَأَسْأَلُ:

- هل حقًا فاطمة كانت معي؟ هل؟

5 ديسمبر 1993

زيارة

ينبعث الصهد من الإسفلت، تجري السيارات فارة من ألسنته الثعبانية، وكانت المرأة تقف وحيدة، على رأسها سلة تقبض عليها بكلتا يديها. وكلما اقتربت منها سيارة تشير باليدين لتوقفها، تهتز السلة فوق رأسها فلا تكمل إشارتها لتمسك السلة مانعة إياها من السقوط. السيارات تعبر دون أن تستجيب لإشاراتها المبتورة، فتظل واقفة إلى تقف بالقرب منها سيارة، يغادر راكب فتصعد مكانه، يساعدها شاب على صعود السيارة، تناوله السبت.

- خذ السبت وأنا سأصعد وحدي.

تقف إلى جوار السبت الذي شغل المساحة الشاغرة، ينطلق السائق فتهتز المرأة، يسندها الشاب، تلوم السائق:

- اصبر يا بني، الدنيا لن تطير، أنا عندي أولاد مثلك يسوقون السيارات لكنهم لا يسرعون هكذا.

يطالبها السائق بأجرة نافرين:

- أنا نفر واحد يا بني
- والثاني للسبت الذي يشغل مكان نفرين.
- أفسحت لها مكانا إلى جوارى، شكرتني وهي تتجه ناحيتي محاولة أن تحمل سلتها، قال الجالس جنب الباب:
- دعيها مكانها فلن تضيع
- لكنه يريد أن يأخذ أجرة وكأنها بني آدم راكب.
- تركت السلة وجلست إلى جوارى، أوصت الجالس جنب الباب:
- خذ بالك من السبت يا بني
- حاضر يا ست ما تخافيش
- أعاد السائق مطالبتها بالأجرة، ردت بعصبية:
- ما قلت لك اصبر يا بني
- سألت الذي أوصته بالسبت:
- كم الأجرة؟
- ربع جنيه للنفر
- همست في أذني:
- انت دفعت الأجرة؟
- نعم دفعت
- كم؟

- ربع جنيه

- يبقى ما ضحكش على

- لا لم يضحك عليك

رفعت ذيل جلبابها الأسود، بان تحته ثوب ثان، أيضا لونه أسود، دست يدها في جيب الثوب الثاني، أخرجتها مضمومة على أوراق نقدية ملفوفة جيدا، فردتها وأخرجت من منتصفها ورقة من فئة الربع جنيه، أمسكتها بشفتيها ثم أعادت لف الأوراق النقدية، وأعادت دسها في جيب الثوب، ناولت الأجرة للجالس أمامها، وهو بدوره ناولها آخر، وهي تتابع مسار الأجرة حتى وصلت إلى السائق، الذي طالب بربع جنيه ثان نظير السبت، لم ترد عليه متشاغلة بتوصية الراكب جنب الباب بالسبت.

توقفت السيارة ليتمكن راكب من النزول، تابعته وهي تعيد التوصية بالاهتمام بالسبت، ولما تتحرك السيارة تقول:

- الحمد لله كنت خائفة ياخذ السبت وهو ماشي.

ضحكنا لكن الجالس جنب الباب قال بغضب:

- قلت لك يا ست واخذ بالي منه، والله العظيم واخذ بالي، ما تخافيش

همست في أذني:

- بالك هو زعلان ليه؟ أصله ما يعرفش أنا جايبة إيه في السبت، فيه فضلة خيرك بيض وسمنة وجبنة، زيارة لابني الكبير محمد، هو مش محتاج حاجة، ومش ممكن يزعل لو دخلت عليه وإيدي فاضية، لكن ما ينفعش أدخل على ولاد ابني وإيدي فاضية، حتى عشان أمهم ما تتلويش مني وتحس إن قعدتي عندهم ثقيلة على نفسها.

تصمت لحظات لكنها دائما لا تصبر على الصمت:

- ياااااااااه يا محمد، واحشني ياوادم، تصدق يا بني أنا ما شفتوش من أكثر من سنة، من قبل العيد الكبير اللي فات، جه يوم قبل العيد ومشى، قال أنه راح يجيب العيال يعيدوا في البلد ويشوفوا أهلهم، لكنه راح وما جاش، ولا حتى جه في العيد اللي بعده.

.. -

- تصدق بالله يا بني، رجلي مخطتش عتبة بيت محمد من خمس سنين ويمكن أكثر، دا حتى فرحه ما رضاش يعمله في البلد، عمله هنا في مصر، وبعد الفرح بيومين وصلني للقطر وقال لي ما تبقيش تتعبي نفسك يا أمي، أنا أبقي أزورك في البلد كل شهر، وما جاش إلا كم مرة، قلت له يجيب مراته، أهلك يعرفوها، ولا جابها ولا سأل، وهو نفسه ما بقاش يجي، الله يسامحك يا محمد.

* * *

عادت توصي السائق بألا يسرع، وتوصي الجالس جنب الباب بسلتها، هذه المرة لم يغضب، ضحك مشاركا الجميع، ساءها ضحكنا فلامتنا:

- بتضحكوا على إيه؟ مش عيب أخاف على الحاجة اللي جايها لولاد ابني، انتم كده يا ولاد مصر، ما تحترموش الغريب.

عادت ثانية للصمت لكنها أيضا لم تحتمل، سألتني:

- العربية دي رايحة المنيب؟

- نعم

- وإنّ رايح المنيب؟

- نعم
- تعرف توديني بيت ابني محمد؟
- هو ساكن فين؟
- في المنيب؟
- المنيب واسعة، دي بلد مش شارع
- بدت عليها الحيرة والقلق، حاولت تبديدهما:
- طيب اسم الشارع إيه؟
- مش عارفة؟ أقول لك مش مهم الشارع، تعرف البحر الغربي؟ هو ساكن عند البحر الغربي؟
- قصدك النيل؟
- لا يا بني، أنا عارفة النيل أصله جاي من بلدنا طوالي، البحر الغربي غير النيل، النيل كبير لكن البحر الثاني ده صغير وناحية الغرب.
- لم أعرف وجهتها، قال السائق:
- أكيد تقصد الترعة اللي بعد السكة الحديد
- سألته بلهفة:
- عندها سجر؟
- كثير
- يبقى توصلني لبيت ابني محمد، هو عند البحر الغربي اللي كله سجر.

* * *

توقفت السيارة، صعد راكب، جلس قريبا من السبت، هتفت به:

- حاسب السبت

نظر إليها مستغربا، لم ينطق وظلت صامته حتى وصلت السيارة إلى نهاية الخط، حاولت أن أحمل عنها السبت لكنها رفضت بإصرار، وإن أمسكته بيد واحدة والثانية لم تفلتني لتضمن أن أصل بها إلى بيت محمد.

سرنا كثيرا بمحاذاة التربة، سألنا وطفنا بحواري وشوارع جانبية وهي تحكي عن محمد، وفجأة رأيت فرنا فتذكرت أن ابنها كان فرانا، قصدنا الفرن فلم يعرفه أحد، وإن وصف صاحبه فرن ثان، هناك وجدنا من يعرفه، قال أنه سافر إلى الخليج، عاد منذ شهور ليصطحب أسرته إلى حيث يقيم، حينئذ فقط شعرت السيدة بتعب المشوار، افترشت الأرض مسندة ظهرها إلى الحائط، بكت كثيرا وهي لا تستطيع الكلام، ولما تمكنت من النطق سألتني:

- إزاي ابني محمد يسافر من غير ما أشوفه؟

- أما يرجع بالسلامة يبقى يزورك

- وهو كان زارني قبل ما يمشي؟ خلاص ابني سافر وانا مش هشوفه تاني، العمر خلاص يا بني، كان نفسي أشوفه. لكن مش ألحق. خلاص بقي ..

حاولت مواساتها لكن كلماتي لم تخفف أساءها، دعوتها للمبيت عندي لكنها رفضت بإصرار، عادت للبكاء، ومن خلال دموعها قالت:

- يا ريت توديني لمحطة القطر، عاوزة أرجع بلدي، ما تخافش يا بني مش أدفعك أجرة ركوبي، الحمد لله خير ربنا كثير ومعايها أجرة ركوبي،

والنبي يا بني انا مش محتاجة حاجة، لكن كان نفسي أشوف ابني قبل ما أموت.

أغسطس 1988

عن روحها التي تسربت خلصة

ترنو بقلق للمسجاة على فراشها بلا نفس. تفرع لشحوبها المتزايد.
تغالب أمك أساهاء، تقول أن بياضا ملائكيا يكسو وجه الجدة. تهرع لعيني
الطبيب، لا تطمئن. يمارس عمله باعتياد بارد لكن ملامحه تنبئ عن
إدراكه لقرب الرحيل.

ترنو للأنبوب الموصول بذراعها، تطمئن نفسك باستمرار سريان
السائل. جسدها النحيل يتلقى المحاليل بنهم دال على رغبته في الحياة.
إذن ستشفى... سوف تنهض. ستعود صبية وأعود أنا طفلا ينام في
حجرها بعد أن يشبع من الحوادث.

* * *

أمك لا تحافظ على تماسكها. تبكي منهارة. تطالبك بأن تلقن الجدة
الشهادة، ذلك كل ما نستطيع فعله لها. تفعل وأنت موقن من أنها ستغالب
وهنها وتغلب مرضها، وكعادتها ستقوم معافاة، تملأ الدار حياة.

* * *

"ترقبها جالسة فوق الحصير في باحة الدار، تهش الطيور إن لامست
حصيرتها، ترقبها. وهى تلتقط الحب مقررة. تبدو القرقرة وكأنها ترديدا
للحن يشجى الجدة فتغنى.

تلومها أمك، تؤنبها : هل تختمين الصلاة بعدودة؟

يبدو وكأن الجدة لم تسمع، تشرذ محدقة في وجوه الراحلين التي لا
تبدو لسواها. تواصل ما تعتقده أنت غناء، يعجبك صوتها وأدائها المنغم
وهى تؤدى ملحماتها الرائية لكل الذين ذهبوا".

* * *

شفاتها تتمتمان بوهن. لعلها تغنى مناداة من تراثهم.

تبتعد عنها ولما تعود ترى الطبيب وهو ينزع الكانيولا، الممرضة
تبتعد بالحامل وقارورة المحاليل. تدرك أن روحها تسربت خلسة، ترى
أمك تسبل عيني أمها. تخرج من جيبها منديلا أعدته لهذه اللحظة. تفرده
أسفل الذقن، تعقده عند مفرق الشعر. تقول إن لم تفعل ذلك فقد ينفتح الفم
ويظل فاعرا إلى يوم القيامة.

تطمئن أمك إلى إحكام الرباط قبل أن تصرخ معلنة موت الجدة.

تشارك أمك احتضان الجدة وتبكي.

مارس 2005

ساعة قبل النوم

عادت مرهقة. تخلّصت من الملابس الخارجية. تمددت فوق الفراش. دقات الساعة نبهتها. غادرت إلى المطبخ. أخرجت ما في الثلاجة. أشعلت عود ثقاب. فكرت في أنه الليلة قد يتأخر مما يضطرها لإعادة تسخين الطعام. أطفأت عود الثقاب، وعادت إلى الفراش.

لما سمعت صرير الباب. تناومت. انحني عليها، أنفاسه سبقت شفثيه إليها.. فتحت عينيها مبتسمة. رآته مرهقا. تجرد تماما وهي تتابعه صامته. غادرها إلى الحمام. قامت إلى المطبخ.

الدوش يدفع مائه بغزارة. وشيش البوتاجاز يتناغم مع هدير الدوش. تتابع اللحن. ولما ينقطع صوت المياه يوش البوتاجاز منفردا.

يخرج ملفوفا بالمنشفة. يعود مرتديا جلبابا خفيفا. يتسلى بمطالعة الصحيفة. تأتيه بصينية الطعام. تشد الصحيفة من يده.

- لماذا لم تقرأها في الصباح ؟

- لا وقت لدي.

وهنا أيضا لا وقت لديك.

تفرد الصحيفة فوق السجادة. يحاول منعها.

- لم أقرأها بعد.

- أنت تشتريها لنفردا تحت الأطباق.

يضحك مستسلما، يأكل بشهية مفتوحة. بعد الشبع يتحدثان.

يقول:

- أسوأ ما في الدنيا الجوع

ترد:

- أسوأ منه التعب.

تعيد الأطباق الفارغة إلى الصينية. يللم أوراق الجريدة. يكورها.
يضعها في طبق فارغ. تحمل الصينية. يعود إلى الحمام. يأتيه صوتها:

- الحمام ثانية.

- جسمي لا يبرد أبدا.

- الدوش لن يجديك نفعا أطلب المطافئ.

يضحك بينما الماء البارد يغمره. كانت في المطبخ تغسل الأطباق
وتتمتم بأغنية لنجاة.

انتهى قبلها. سبقها إلى الفراش، ولما لحقت به فتحت الدولاب، نرعت
ما عليها. تابعها متأملا. ارتدت قميصا ورديا يحبه. يأكلها بعينيه. تبتسم
متسائلة بدلال:

- ماذا بك ؟
- لا تزالين جميلة.
- تصمت ثوان وكأنها تتأمل مقولته.
- يعاود الهمس:
- لا تزالين جميلة.
- تبتسم:
- وأنت أيضا.
- أنا ماذا؟
- أحبك.
- يمسك يدها. تضغط على يده. يتنأب. يسمعان صوت دقات الساعة.
- يعد الدقات:
- واحد
- تنأب وهي تشاركه العدد:
- اثنان
- ثلاثة
- يصمتان بينما تواصل الساعة دقاتها،ولما تسكت الساعة يغرق المكان في الصمت.

نوفمبر 2005

موجة حارة

قال لها أن من حسن الطالع أن يصادف انكسار الموجة الحارة يوم إجازته من عملة الثاني. تجاوز عن نظرتها الغير فاهمة والغير راضية. أسلم عينيه للجدار المقابل. ساعة الحائط تشير إلى السادسة الا الربع. خشي ان يسود الصمت فقال إن الجو لم يزل حارا رغم اقتراب المغيب. لم ترد.

واصل ثرثرته. حكى عن زملاء العمل الحكومي وصراعهم على الترقيات الشحيحة، وعن زملاء العمل الثاني في مكتب المحاسبة، أغلبهم من شاغلي الوظائف الحكومية، كل السحن تبدو في المساء مختلفة عنها في نهارات الوظائف.

تركته داعية الطفلين للاستحمام. اقترح أن يعد الشاي على موقد السبيرتو . قال إن البوتاجاز يسلق الشاي ويغير طعمه، وهو الآن يتوق لشرب كوب شاي مختلف.

سألها فأوضحت له مكان السبيرتو والموقد. خرج بهما إلى البلكون. لم

يكن البلاط ساخنا فالزوجة مسحته قبل قليل. أنزل السلة مناديا البقال:

- بجنيه فول سوداني

لم ينس إحضار طبقين فارغين. واحد يفرغ فيه قرطاسا الفول السوداني، والآخر للقشر، كذلك لم ينس الكاسيت. تحرير أمام الأشرطة. أنهى الحيرة بشد أحدها دون اختيار، ضغط الزر بعدما افترش البلاط. أشعل عود ثقاب. وضع البراد على الموقد بينما أم كلثوم تحكي عن الموجة التي تلاحق الموجة. يغنى معها:

- تضمها وتشتكى حالها ..

تأتي الزوجة بالطفلين. تبتسم قائلة:

- عشان اية الجو ده؟

ابتسم مشيرا لها أن تجلس إلى جانبه. فعلت. تعارك الطفلان على حبات الفول السوداني. نثرا القشر فوق البلاط فصرخت الأم مؤنبه الأب:
- حرام عليك منذ الصباح وأنا واقفة مثل الددبان، وقبل أن أستريح دقيقة تحول الشقة إلى سوقية.

باعتياد ابتلع غضبه، حاول أن يتضحك فصيح لها:

- قولي ديدبان، ولا تقولي ددبان.

لم ترد. تشاغلته بلملمة قشر السوداني. ولما طالت يدها الكاسيت أخرسته. أعلن غطاء البراد عن نضج الشاي فهتفت بحدة:

- الشاي طلع.

أنزل البراد، أطفأ الموقد. صب الشاي. رشف بتلذذ:

-- أحسن شاي تشربية شاي السبرتاية.

ردت:

- عامله ثقيل كأنك متغدي بخروف مشوي مش بطاطس مقلية وقوطة
مخللة.

صامتا واصل رشف شايبه. لم يخبرها أن الطعم تغير. أصبح مرا.
غادر البلكونة إلى الصالة. أمطر التلفزيون بطلقات الريموت. تواصل
القنوات فرارها من قصفه، وحينما توقف كانت نشرة أخبار السادسة قد
وصلت إلى أنباء الطقس. لم يفاجئه الإعلان عن بدء موجة حارة جديدة.

يوليو 2008

تلك التي لا تنسى

تركت زوجتي كوب الليمون وقامت لمشاهدة صور الممثلات المعلقة على جانبي مدخل المسرح. تابعتها وأنا أرشف القهوة.

فجأة انقضت على:

- أنظر، أنظر. أليست هذه شاهدة.

- شاهدة من؟

- وهل نعرف ألف شاهدة؟ الممثلة طبعاً، أنظر ها هي قادمة.

ثمة عجوز متصابية، تمشي متمائلة، تشبه النجمة الأفلة:

- أليست هي؟

- تشبهها

- صدقني إنها هي أنا أعرفها جيداً

أشارت للنادل، تأكدت منه، أكد على أن التي مرت إلى جوارنا هي نفسها شاهدة التي كانت، أشار إلى صورة معلقة للنجمة في شبابها. هي

التي علقتها بين الصور، اختارت لها مكانا لصق باب المدير ليراها كلما دخل أو خرج.

غابت لدقائق قلائل ثم عادت، تمر بين الترابيزات مستجدية نظرة، تمنى نفسها بأن ثمة من يتذكرها، فعلتها زوجتي، لم تضيع الفرصة، سألتها: ألسنت أنت..؟

أجابت قبل أن تكمل زوجتي السؤال:

- نعم أنا هي.. أنا شاهدة يا حبيبتي.

احتضنت زوجتي، أمطرتها بالقبيلات، ولما أتى النادل لرفع الكوب والفنجان، فتحت حقيبتها، دست في يده ورقة مالية، قالت ببحة صوتها المعهودة:

- خذ حساب البك والهاتم والباقي كله لك.

راحت تحديق في وجوه الجلوس لعل أحدا غير زوجتي يتذكرها، تابعت رائحة عطرها، دعوتها للجلوس فرفضت. بدا على الجميع عدم الاهتمام، أو ربما اعتياد رؤيتها، بينما واصلت هي الكلام:

- أنا كنت أتحرك على الخشبة طوال العرض، لا أتعجب.

استوقفت النادل:

- أسمع يا عبده، ما تتناش تقول للندل اللي جوه (أشارت ناحية مكتب المدير) أن الجمهور بالخارج مازال يتذكر شاهدة، هو فقط الذي نسي.

غادرنا النادل وواصلت هي:

- الندل أنا التقطته من الشارع، صنعت منه نجما، واليوم ينساني، لا

يسند لي أي دور وكأنني

لم تكمل، منعها النشيج، حاولت تهدئتها، انخرطت في نوبة بكاء شديد، احتضنتها زوجتي، لاحظت احوداب ظهرها، ولاحظت تحلق الحضور حولنا، ظنوا ما حدث عرضا مجانيا، ولما هدأت شاهنדה انتبهت لهم، انحنت تحييهم، دارت حول نفسها، وسط حلقة الحضور.

الإشفاق دفعني للتصفيق بحرارة، لعلى أجد من يشاركني فنقدم لها بعض ما تحتاجه لتبرأ، لم يشاركني التصفيق إلا زوجتي، كثيرون التزموا الصمت، والبعض ضحك ساخرا، وظلت هي تحيينا وترميها بالقبلات حتى غادرناها لنلحق بالعرض قبل رفع الستار.

إبريل 2002

عطش اليمام

وحيدة تقف في الشرفة.

إلى الأفق ترنو، وفي خاطر شوق أسيان، وبالخيال تسافر إلى حبيب بعيد. طفلتها تناديه. اللثغاء لا تمل من السؤال عن أبيها، تضمها الأم بحنو، ومن خلال نشيجها تجيب :

- سيعود قريباً حبيبتى، سيعود.

* * *

تنتبه للجرات، فرغن وجففهن الهواء، نسيت أن تملأهن.

تأتى بالماء وتملاً، تضع فوقها الأغذية النحاسية اللامعة، ثم ترش الماء الفائض، تتابع ارتطام قطرات الماء بالأرض العطشى، تهش يمامة تحوم، وتغنى بصوت هامس لا يبين، تعاود هس اليمامة، تخشى أن تعجبها الشرفة، تستوطنها، تبني عشا في السقف فيجلب الثعابين.

لا يمكن أن تنسى يوم رأت الثعبان يلتهم يمامتها، فزعت فاحتضنتها

الجدة، والخال طارد الثعبان، لم يظفر إلا بجزء من ذيله، ولم يعد إلا بكيس من الشيح، وزعته الجدة على أكياس صغيرة من القماش ودستها في الزوايا لتطرد الثعابين.

تقف اليمامة على حافة الصينية، تلتقط قطرات ماء، تنتبه الشاردة فتطير اليمامة قبل أن ترتوى، لا تدرى المرأة سر إصرار اليمامة على العودة، أهو العطش، ربما، هي أيضا عطشى وريها بعيد.

* * *

ترسل ناظرها إلى الأفق البعيد، لعلها يلتقطان الغائب، تعودان به، تهرع إليه، يمتد عناقهما من أول ظهوره في الأفق وحتى مدخل البيت.

تُفقيها اللثغاء، تطلب ماء، هي أيضا عطشى، جرعة صغيرة تروى الطفلة، ترد باقي الماء إلى الجرة، تنهرها الأم وتسكب الجرة من شرفتها، تأتي بماء جديد وتملأها ثانية، تستقر الجرة داخل الصينية، تسكب ثانية الماء الفائض، تراقبه في استقراره على الأرض، تحوم حوله اليمامة، تدور دورتين ثم تقف ملتقطة بضع قطرات. تتشاغل المرأة بمتابعة اليمامة، تداعبها، تسكب فوقها ماء من الجرة، تنتفض اليمامة وتقفز مبتعدة، ثم تعود، تسابق الأرض في ارتشاف الماء. ولما تضيق المرأة بلعبتها، تسكب كل الجرة، تبلل اليمامة، فتنتفض جناحيها وتطير مبتعدة.

سبتمبر 2000

سفينة نوح

محبوس أنت يا نوح منذ داهمتك السيارة الملعونة، وها أنت وحيد،
تعانى الفراغ والخواء. أصبحت ملولاً، فلا شيء تفعل سوى أن تأمر
زوجتك حتى تضجرها، أو ترقب طفلك "سعيد" في لهوه.

نزعت لفائف الجبس عن ساقيك، لكنك لم تقدر بعد على المشي.
ساقاك تؤلمانك، تدلكهما الزوجة، تستنيم لخطر الدلك والماء الفاتر، لكن
إن قوى الدلك تتألم.

تتذكر أخيك المسافرين، كن ودوداً واكتب له، الورق على الطاولة غير
بعيد، الوصول إليه لن يرهقك، مد يدك، خذ ورقة وقلمًا واكتب.

لا يا نوح، لم أعهدك شكاء يا رجل، ماذا تكتب؟ أتبوح ببعجزك
لأخيك؟ تسترقق قلبه؟ تستجديه؟

لا يا نوح. غير الورقة، اكتب كلامًا غير الكلام.

أيها اللوام هب أن رسائلك لا تصله، ماذا تعرف عن أحواله؟ هب أن
رسائله لا تصلك، لا تقس عليه. غير الورقة، واكتب كلامًا غير الكلام.

تخط رموزًا بدائية. ترسم دوائر، تود استعادة الأيام المارقة. تحلم بقصيدة، لكن الشعر عصى. لم تعد شاعرًا يا نوح، غربان أيامك السود أفرغت عصافير شعرك. وهيهات هيهات أن تعود. تموت كلماتك دائما في المسافة بين سن القلم وسطح الورقة.

تدع القلم ينزف ملوثًا بياض الصفحات. تعود لطفلك، تراه يحبو مقتربا من وعاء الماء، أمه بعدما انتهت من ذلك ساقبك تركته وانصرفت لشئونها، تتذكر ما كنت تفعل بالورق وأنت صغير، ربما قبل أن تمسك بالقلم. تننى حواف الورقة، سعيد يتابعك غير فاهم، الورقة لا تزال في عينيه ورقة. وأنت تقول عنها مركب، وتسمى الوعاء بحرًا.

تنزل سفينتك إلى البحر. تخطب سطح الوعاء فيهتز، يرتج الماء، تحدث أمواجًا، تتحرك السفينة، تخاطب سعيدًا، ينظر فرحًا، تعاود اللعبة، لكنه مثلك ملول، يولييك ظهره، يحبو مبتعدًا، تعود لسفينتك.

تراها في القاع غارقة.

يونيو 2001

اثان

هل تستطيع أن تفعل من أجله شيئاً؟

لا تكذب، لن أقبل أن تجيب بنعم، فأنت حقا لا تستطيع أن تفعل من أجله شيئاً. تعلم يقينا أن ليس يوسعك شيء سوى مصمصة الشفاه، وإخفاء ملامحك خلف قناع حزين، لكن قناعك ذا متهرئ، لن يثبت طويلا فوق الملامح، فسوف تسقطه أول ابتسامة لطفك أو أول نظرة باتجاه شرفة السيدة الجالسة قبالتك، فغلالتها الصيفية الشفيفة بواحة، تريك ما ينسبك ذلك المسجى على أرض الشارع تشرب من دمه الجرائد التي تغطيه، فلا تكذب، لن ألومك لأنني مثلك لا أملك له شيئاً.

شاء سوء حظي أن أمر في نفس اللحظة التي مر فيها، وكنت أنت في شرفتك ترشف شايك. رأيناه سويا يعبر الشارع، ربما عبره آلاف المرات من قبل، ربما كان عائدا إلى بيت أهله بعدما أنفق نهاره في عمل مضمّن، تستطيع أن تخالفني مخمنا مكانا آخر قضى فيه نهاره، لكنني كنت هنا، لم أكن معك في شرفتك العالية، أنا كنت هنا، رأيت وجهه عن قرب وعانيت ملابسه المتسخة.

لذا أقرر بيقين كامل بأنه كان عائدا من عمل، ربما لدى ميكانيكي أو سمكري أو أي عمل شبيه، قد يكون يتيما وجد نفسه فجأة مسئولاً عن أسرته، فصادر طفولته وغادر مدرسته نازلاً إلى الشارع بحثاً عن عمل. ملامحه المكدودة بريئة، وعيناه مفعمتان بالأسى، أما لحظتها، قبيل أن تدهسه السيارة الفارحة السرعة - والفارة دون أن يدركها أحد - فقد امتلأتا بالذعر، كل ذعر العالم اجتمع في عينيه الصغيرتين، ولما صرخ كانت صرخته عظيمة هزت أرجاء الكون، ولمت بعض المارة الفقراء، بعضهم جادوا عليه بجرائدهم التي اختلط ورقها بعرق أيديهم.

ولما أتت سيارة الإسعاف لتحمل كومة اللحم التي كانت طفلاً كبيراً، يعول أسرة ليست صغيرة، أتى خلفها من أزال آثار الجرائد والدم المتخثر. ثوان وانصرف الملمومون، أنت أيضاً غادرت شرفتك، فقد انتهى كل شيء ولم يعد ثمة ما تنتظر إليه. وها هو جوف السيارة يلفظه إلى جوف ثلاجة بالمستشفى العام، وهو بدوره سوف يلفظه إلى جوف قبر لا يعلمه إلا الله، فالجثة لم تكن لرجل يحمل هوية تخبر عنه، ولا لتلميذ مكتوب اسمه على كراسات في الحقيبة، كما أن الناس قد أقلعوا عن عادة وشم أسماء الأبناء على الأذرع.

وهناك في بيت قد لا يكون بعيداً تقف أمه منتظرة أوبته، ربما حدثها القلب بما جرى فاستعادت بالله من شرور الحادثات، ومن كل ما يخبئه الغيب، ومن وسوسات شياطين تقسو حين تلهو بالقلب، ربما لامت القلب الذي لا تنفرج له انقباضة، تلوم غراباً نعق فوق سطح البيت، وتلعن بومة حطت فوق حبل الغسيل، ربما تتلهى في عمل منزلي، لكن قلب الأم لا يتركها لشئونها، فلا تصبر على الانتظار، تغادر البيت قاصدة مكان عمله، هناك إن لم تجد الأبواب موصدة قد تجد من يخبرونها أنه غادر

منذ حين، خرج في موعده اليومي، تعبر الشارع عائدة، لا أثر ينبئها بما جرى، ولا شيء يطمئنها، تعود إلى البيت، يقف بها قلب الأم في الشرفة، لحظات ولا تطيق فيعود بها إلى الشارع، تدور سائلة عنه ثم تعود لتجلس أمام البيت وعيناها تجوبان الأفق ترقبا لوصوله.
يطول انتظارها، وتظل رافضة التصديق بأنه لن يعود.

أكتوبر 2000

تحقيق الحلم

أكد مرارا على أن اللقاء لم يتم صدفة، وبأنه أصلا لا يعتقد في وجود شيء اسمه صدفة. بفخر أردف بأنه يخطط لكل شيء، لا يدع شيئا عفو اللحظة أو الخاطر. وافقته مجاملا:

- أنت هكذا تكشف عن أحد أسرار نجاحك.

لكمني قائلا من خلال ابتسامة بغیضة:

- بل أكشف عن أحد أسباب فشلك.

لذت بالصمت، فتحدث وحده وهو يقود سيارته الفارهة، كانت ذاكرته من القوة بحيث لم تغفل أي من تفاصيل صداقتنا القديمة، وفي نوبة عرفان نادرة أكد على أن لي عليه أفضال وليس فضلا واحداً. ولت نوبة العرفان مسرعة، فأكد على أن الأفضال القديمة كانت صغيرة وهامشية، لكن كانت كل ما بوسعي، ولأن رجلا مثله لا ينسى من أحسن إليه ولو بابتسامة، فإنه دبر للقاء، ليرد لي أفضالي مضافا إليها الفوائد.

* * *

طوال الطريق إلى مكتبه وهو يجتر تاريخنا المشترك - بحسب قوله- منذ وعينا على الدنيا وحتى أفلح في السفر إلى أمريكا، تنازل لي عن نصيبه من إحباطاتنا المشتركة، تركها كلها لي ذاكرًا إياها بسادية وشماتة لم أعهدهما فيه. ومؤكّدًا على أن الفارق بيننا الآن مساو تمامًا للفارق بين كاليفورنيا وشق الثعبان.

(هل غيرتك الغربة يا صديقي أم جريان الأموال بين يديك؟)

نفث دخان سيجاره وهو يوقف سيارته الفارهة أمام مدخل البناية الشاهقة:

- لم تسألني عن سبب تخطيطي للقائك.

- لأنك تحتاجني.

(ملامحك أبانت عن أثر لكمتي، حاولت مداراتها يا لئيم بابتسامة)

ناول مفاتيح السيارة لرجل هرع ناحيته، ألقى بالحقيبة لآخر، أشار لي أن أتبعه،

سعل وبصق عند أول درجات السلم، وعند المصعد قهقهه خابطًا جبهته بكفه (كعاداته حينما يفجؤه شيء).

ألقى بالسيجار، داسه وهو يخطو والجأ المصعد، دحجنى بغیظ:

- محتاج لك؟ أنا محتاج لك؟

فرحت لأن لكمتي أصابته فوجهته له أخرى:

- لم يتغير فيك شيء.

سبقنا الرجل حامل الحقيبة مغادرًا المصعد، يوسع الطريق الخال

أصلاً أمام صديقي الذي تشاغل بإشعال سيجار ثان، واصلت وأنا أتبعه:

- السيجار وماركات الملابس هما فقط كل ما تغير فيك.

- وأنت لم يتغير فيك شيء، ثباتك على الفقر مبدأ لا تحيد عنه.

لم أدعه يفلت منتصراً:

- لم تصب من اللكمة المزعومة إلا قشرته والدليل بصاقك في الشارع.

حاول مفادة اللكمة:

- وهذا سر ثان من أسرار نجاحي، أنا أفعل ما أريد وقتما أريد وحيثما أريد، لا أكبت نفسي مثلك، بينما أنت تفعل ما تظنه يعجب الناس مهما خالف رغباتك أو قناعاتك.

- ماذا تريد مني؟ لماذا أحضرتني إلى هنا؟

حاولت العودة للمصعد، منعني مقهقها :

- ما تبقاش عيل، ادخل.

- ماذا تريد؟

- قلت لك.

- لم تقل إلا كلاماً سخيفاً.

- هذا ما أدركته أنت من أحد وجهي العملة.

- والوجه الآخر؟

- أرد إليك أفضالك أما فوائدها ففي حينها.

- تردها بإهانتني.

- أهدي إليك عيوبك، أريك نفسك في مرآة مجلوة، لعلك تكتشف أخطائك، وتدرک سبباً لفشلک غیر سوء الحظ.

* * *

كالمنوم سرت خلف الباشا بين صفی المرحبين بقدومه والمتزلفين له، جلست على مقعد وثیر قریب من مكتبه، فتح علبة السیجار، مدها ناحيتي.

- لا أدخن.

ضحك :

- أعرف.

أشعل السیجار، سألته لمجرد الخروج من حالة الصمت:

- أهذا ثالث أسرار نجاحك؟

واصل ضحكه :

- السیجار أحد المظاهر وليس أحد الأسباب، وأعرف أنك لا تدخن لأنك طول عمرک حریص على صحتک (عاد للضحك بصوت عال) وصحتک مش ناقصة، (واصل من خلال ضحكه) واضح إن صحتک بعافية شويتين.

- مش كفاية استعراض وتدخل على المفید.

- أنت تغیرت حقاً، لم أعهدک ضیق الصدر هكذا.

- لقد مللتک ومللت تعاملک المهین، لن أحتمل أكثر مما احتملت.

- ظننتني أحتاجك، ماذا أفعل بك؟ وهل أحتاج مستشارًا للفشل؟ أيضًا
قدراتك لن تجدي إن اخترتك مضحكًا لي، طول عمرك دمك ثقيل ، قد
يخطر ببالك أنني أنوي الترشح في الانتخابات القادمة وتظن أنني أحتاجك
للحشد، حتى في ذلك لا نفع لك، أنت لا تملك إلا صوتك، وصوت واحد
لا يجدي، حتى لو كان صوت شخص مميز مثلك، أما ميزتك الموهومة
أو عقدتك، أقصد ثقافتك، فلا أحتاجها لا في البرنس ولا في مخاطبة
ناخبين أميين.

* * *

سهمه أصابني، جعل قواي تخور، تصببت عرقا رغم برودة التكييف،
حاولت النهوض، أشار بألا أفعل :

- تخطئ لو هربت، صدقني أريد مساعدتك.

- لا أحتاج منك شيئًا.

- تكذب، تحتاج وتريد لكن يمنعك الخجل أو تعوزك الوسيلة.

- دعني أنصرف أرجوك.

- سأوصلك لكن ليس الآن، أصبر حتى تنتهي الجلسة.

- جلسة التعذيب؟

- تظنني شيطانًا يا صديقي وأنا ما أردت لك إلا الخير، أنا أجلك
لأطهرك، هيا استرخ واحك.

- يبدو أن لا عمل لديك اليوم.

- أنت اليوم عملي.

- بل لعبتك.

- لا فرق.

* * *

مرة ثانية أسترسل كالمنوم، استجبت لرغبة - لم تتحقق منذ زمن - في البوح، حكيت عن عدم قدرتي على هجر بيت لم يعد سكنا، أو الاستقالة من عمل لم يمنحني حقا أو مكانة، رئيسي اغتصب منصبي بالتدليس، يعاملني بخسة، لذا أكرهه.

لم يدعني أسترسل :

- تصر على سلبيتك دائما، لا ترد على من يؤذونك إلا بالكراهية، أنت هكذا تؤذي نفسك لا غير، اقتص لنفسك، افعل شيئا تجاههم، ألم تفكر في شيء سوى الكراهية ومحاولة الهروب؟

- مثل ماذا؟

- أن تقتل، مثلا، مثلا.

- وهل ترى في القتل حل؟

- لا ليس حلا ، وكذلك الاستقالة أو هجر البيت.

- وما الحل؟

- المال وحده الحل وسأعطيك المال.

- ولماذا؟

- هذا هو السؤال الخطأ.

- وما هو السؤال الصحيح؟

- كم أعطيك؟

- لماذا؟

- ألم تحلم بالمال أبدا؟

* * *

"حلمت بشقة، لا يهم أن تكون كبيرة فخمة، ما يهمني أن

تكون مريحة، أحيا فيها سعيدًا مع أسرتي، أملاها

بالكتب، وأشرطة الموسيقى أحتاج أيضا بعض المال،

لا تهمني الأرقام الكبيرة، فماذا أفعل بها؟ يكفيني مثلا

ثلاثة أمثال مرتبي أو أربعة أمثاله، فماذا أفعل بأكثر من

ذلك، يكفيني أن ألبى حاجات أسرتي وهم يشبهونني في

الاكتفاء أو الاستغناء."

* * *

سخر من حلمي، رأي فقيرا وشحيا حتى في الحلم، عرض أن
يقترضني مليوناً من الجنيهات، قرض حسن لا ينتظر منه فائدة، قال أنه
سيلعب معي بأقل من نصف في المائة من ثروته، وقد يتنازل لي عن
المبلغ كله إن خالفت ظنه ونجحت، أما إن فشلت فسأكون مطالباً برد

المبلغ، فتح درج مكتبه، أخرج العقد مكتوباً، وقعه كطرف أول، أراني الشيك، أشار إلى أصفار المليون وهو يعدها، نصحتني قبل أن أوقع، أمامك عام إما أن تتغير وتنجح وتفوز بالأموال، وإما أن ترد المليون كاملاً، كان على ثقة من فشلي وتبديد الأموال، وكنت أدرك أنني الآن فقط تغيرت، تغيرت فعلاً، لن أنتظر عامًا لأثبت له أحقيتي بالمليون، تكفيني دقائق عشر، لأحصل على الأموال ونسختي العقد ثم أقتله وأفر بعيداً.

مايو 2012

الذي جرى

- ما الذي جرى للناس؟

لم يكن الزبون يسألني، بدا وكأنه يشتمني أو على الأقل يتهمني بالجشع.

في الحقيقة طرحت السؤال - صامتا- على نفسي وهو يساومني على أجرة التاكسي مع أنني أشرت للعداد وأنا أذكر له الرقم. تقريبا وعقب كل توصيلة يحدث نفس الجدل، أغلب الزبائن يصرون على المساومة، يظنون أن سائق التاكسي يلعب في العداد ليشير إلى رقم أعلى من التكلفة الحقيقية. أغلب الركاب يظنونني سارقا، أخي أيضا يظنني كذلك، هو مالك التاكسي الذي أعمل عليه، بعد انتهاء ساعات دوامي الوظيفي. حقيقة لم يفه بكلمة تشير إلى الاتهام، لكن نظرات عينيه تصرخ بها يوميا وأنا أحاسبه، مهما أعطيته يظن أنني حجرت لنفسي مبلغا ما، رغم شكواه الدائمة من عدم تساوى يوميين في صافي الإيرادات إلا أنه جعل من متوسط المبالغ التي يقبضها مني منتصف كل ليلة معيارا يحاسب وفقا له. ابنه الذي كان ضابط احتياط لمدة تزيد على الثلاثين شهرا عقب

تخرجه في الجامعة، حاول أخي إقناعه بأن يكمل حياته ضابطاً فلا وظائف محترمه تنتظره خارج الجندية، لكن دموع زوج أخي حالت دون إتباع ابنها البكر لنصيحة الأب ذو الطابع العملي. وها هو بعد عامين من خلع الكاب والبدلة ذات الدبورتين يجد نفسه مضطراً للعمل سائقاً لتاكسي، ولولا مساندة الأم له لفقدت أنا وريديتي، فالأب يريد سائقاً طوال اليوم ليحافظ على ماله. بينما الأبْن وأمه يشكوان مشقة اللف الدائم في الشوارع.

* * *

اليوم فضضت شجاراً حدث بين أخي وابنه، أخرج الابن جيوبه الخاوية لتشهد على صدق قسمه بأنه لم يحجز جنيهاً من إيراد التاكسي، وبصوت مفعم بالدموع أقسم ألا يدخل التاكسي ثانية، حتى ولو راكب، حاولت تهدئته لكن أخي قذفني بالمفاتيح:

- مش هنشوف شغلنا إحنا، نسيب التاكسي مركون زيه زي المطلقة الحامل ونقعد نتحايل الننوس وندلع فيه.

زوجة أخي استبقتني لأعاونها في الدفاع عن ابنها، تغيرت لهجة أخي: - أنا لا أشك في ذمة ابني، لكن أشك في رجولته، الزمن صعب والبشر أصعب ولو ما بقاش رجل بجد مش هيقدر ياخذ حقه، مش هيعرف يعيش.

* * *

حينما فاجأني بالظهور أمامي كنت أسأل نفسي : أية حياة تلك التي

نحيائها؟ أنكرت أن تكون الحياة هي مجرد الحصول على لقمة العيش. كأن الأرض أخرجته في منتصف الطريق، انحرفت يمينا لأتفاداه، لكنه عدل مساره ليظل في مواجهتي، نظرة سريعة في المرأة منعنتني من الانحراف يمينا أو يسارا، أما هو فكأن الرعب قيده، أو ربما يؤس من إدراك النجاة، أو لعله ينشد الموت ليرتاح.

رغم محاولة إيقاف السيارة، رغم صراخ الفرامل إلا أنني صدمته، توقفت لتوان ثم لمت نفسي، أية حماقة أرتكبتها بالوقوف، انطلقت بأقصى ما أستطيع من سرعة، قد أتهمه بالإقدام على الانتحار، قد أقسم على أنه أصم أذنيه عن صوت الكلاكس وسعى لمصيره المحتوم. لكن هل أجد من يصدقني؟ هل ينصفني شاهد؟ كان لا بد من الفرار، ففررت. لم أبتعد كثيرا، شارع جانبي أدخله لأخرج إلى شارع آخر، على جانبه أوقفت السيارة، خبطت مقودها برأسي ثم انفجرت باكيا.

قررت أن أعود لأعرف ماذا حدث للرجل. ركنت السيارة غير بعيد عن موقع الحادث، تركتها ومشيت باحثا عن الجثة. ليس ثمة قتيل في الشارع، لا جثة لأحد على الأسفلت، لا دم متخثر، لم أجد شيئا مغطى بالجرائد، ولا بشرا يتحلقون، وليس ثمة آثار لأي شيء على الأسفلت، تلفت يمينا ويسارا، تمثال نهضة مصر يواجهن، ومديرية الأمن غير بعيدة، صور الرجل الكبير تملأ الحوائط، جنود كثيرون مرشوقون في الأسفلت، وليس ثمة جثة.

قررت ألا أعود للسيارة قبل أن أجده، واصلت المشي باحثا عنه، أخيرا وجدته، ثمة حلقة من البشر هناك، لا بد أن الجثة وسطهم. خلست اندسست بين الواقفين، كانت اللمة حول امرأة مقعدة تبيع لعبا للأطفال،

كانت الدمية الكبيرة على هيئة طفل يرتدى قبعة، بين شفثيه سيجار،
وتنبعث منه أصوات موسيقى، الطفل الدمية يرقص، والواقفون يعجبون
بينما المرأة المقعدة تزفر:

- ما الذي جرى للناس؟

تذكرت أنني والزبون وأخي سألنا نفس السؤال فابتسمت بأسى، بينما
المرأة تواصل شكواها:

- من صباحية ربنا والعيل يرقص والناس يتفرجوا، غيرت البطارية
مرتتين والناس لا حد منهم اشترى ولا حد مشى.

انسللت خارجا من لمتهم، ناسيا أمر الجثة، انطلقت بالتاكسي وأنا
أتمتم:

- حقا ما الذي جرى للناس؟

أغسطس 2012

مفترق طرق

الزحام في الشارع شديد، يبدو وكأنه تدريب عملي على يوم الحشر. أمواج البشر تضرب في كل اتجاه، والملصقات على الحوائط الكالحة تبدو كرقع في ثوب رث. اقرأ الملصقات أثناء اندفاعي مع سريان تيار المارة، كلها إما دعوات للتبرع أو للحجاب والصلاة، وإما إعلانات عن نجوم الغناء أو أبطرة الدروس الخصوصية.

أتحرك بصعوبة مستندا على ذراع صديقي. توقفنا الإشارة الخضراء السامحة بانطلاق رتل السيارات. يشير صديقي إلى صورة مطربة شبه معروفه وشبه عارية، يقول ضاحكا:

- أنظر كم هي ضعيفة تهتف برجلها "قويني بيك"

أنظر إلى حيث يشير، أسمعه يواصل:

- كم هي خبيثة قصدها أن تهد حيله لا أن يقويها.

صوت الميكروفون يغطي على ضحكات صديقي. يقبض عليه رجل ذو لحية أجش الصوت يدعو المؤمنين للتبرع لأعمال الخير، نتجاوزه

لكن صوته مازال يحتل أذاننا، الزحام الشديد يوقفنا، ألمح فرشة كتب، أمر على العناوين، نصفها عن الترهيب من الآخرة، أو الترغيب فيها، يعد بالجنة والبنات الحور، بينما النصف الآخر يدعو للعناوين، عبر كتب أخرى تحمل وصايا لليال سعيدة، يشاركني صديقي الإعجاب بذلك التوازن بين الدنيا الآخرة، فإلى جوار مجلد عن عذاب القبر يستقر كتاب رجوع الشيخ إلى صباه.

يذكرني صديقي بإعلانات الصحف عن المنشطات الجنسية وعن أماكن علاج الضعف الجنسي ثم يسألني مندهشاً:

- ماذا أصاب الرجال؟

* * *

تحمّر الإشارة فتقف السيارات. ننتهز الفرصة ونسرع ونهرع عابرين الشارع. يواصل تيار المارة سريانه، يدفعنا إلى فرشة كتب أخرى في الناصية المقابلة. أيضاً إلى جوارها رجل يمسك بميكروفون، ألمح على يده وشم الصليب، أسمعته يدعو المؤمنين للتبرع. الكتب على فرشته تدعو لعالم مختلف وتبشر بجنة أخرى.

أقف قارئاً للعناوين. يزاحمن رجل، يفصل بيني وبين الفرشة، يقلب في الكتب سريعاً ثم يدعها إلى الشرائط، يختار أحدها، يجربه له القابض على الميكروفون، ينبعث صوت الترانيم، يقرب الرجل ميكروفونه من الكاسيت فيسمع الجميع:

- كل العالم فاني، كله قبض الريح

صخب المارة يغطي على الصوت الرخيم، وتيار السابلة الساري

يأخذني وصديقي بعيدا عن الدير والترانيم. نعبر الطريق بالقرب من مستشفى الولادة، نرى أمام مدخلها سيارة إسعاف يطل من بابها المفتوح رجل يمسك بالميكروفون ويدعو للتبرع بالدم، آخر يتناول الميكروفون يذكر أطفالا مبتسرون وأطفالا مرضى قبل أن يطلب التبرع بالمال.

* * *

نهم بالابتعاد، تقترب منا شابة نحيفة ترتدى ثيابا بالية سوداء، توقفنا مادة يدها، قائلة بصوت واهن:

- لله .. شيء لله

تقرب رضيعها البائس مني، تستعطفنا لكن صديقي يبعدها فتبتعد حزينة، أراها تجلس مستظلة بلوحة كبيرة تملأها صورة الرئيس ماذا يده بابتسامة، تنتائب وتمد يدها، تماما تحت يد الرئيس. أهم بنصحها بالابتعاد، وتغيير المكان فاليد الممدودة في الصورة لن تعط شيئا، لكن صديقي يشدني محاولا عبور الطريق.

مايو 2009

ذلك النداء

- 1 -

خبطت على صدرها بكفها لما أتاها النبأ. اتهمت زوجها:

- أنت وحدك المسئول. فلينتقم الله منك.

صامتًا تابعها وهي تسب وتلعن. تملأ وعاء بالماء. تزفر بضيق وهي تتعجل الماء المتدفق من فوهة الطلمبة. تصب الماء على رأسها. يخرج عن صمته:

- لم تجف الحناء بعد.

تواصل غسل الحناء عن شعرها، وتعيد اتهام الرجل:

- أنت المسئول. محمود بن بهانة الغلبانة سيموت بسبب طيارتك يا أبو طيارة.

لم يحب رائحة الحناء أبداً. هي تحبها وتلجأ إليها كثيراً. تتحدث دائماً عن فائدة الحناء لعلاج أوجاع الرأس كما أنها سنة عن الرسول (ص).

يرغب في إغاضتها.

- ليسا الصداق والسنة يا وطفة.

تقول ساخرة:

- أفتنا أفادك الله

- الشعر الأبيض يا وطفة، تريدين إخفاء شيبك خلف لون الحناء

يدرك أنه أفلح في إغاضتها فيواصل:

- عجينة الحناء فوق رأسك تذكرني بأمك حينما وضعت الطين فوق رأسها يوم موت أخيك.

- عقبال ما أشيل الطين عليك يا سعيد يا بن هنية.

تنطقها وهي تسدل الثوب الأسود. تغطي رأسها بشال أسود أيضاً.
يسألها:

- إلى أين؟

- إلى المستشفى لأكون بجوار بهانة. ابنها الوحيد فوق ثلاث بنات سيموت بسببك. ليتة ينجو وترحل أنت.

- وهل تحلو لك الحياة بدوني؟

- لا تحلو إلا بدونك.

- تكذابين.

- أتعرف يا سعيد لن ألبس الأسود عليك إلا ليومين فقط.

يضحك فيزداد غيظها.

- أيام العدة أكثر من ذلك

- أتعرف يا بن هنية بماذا تذكرني؟ أنت مثل الساقية التي لا تدور.
أتذكر بتوع السима حينما صوروا فيلمًا في أرضنا. لم يجدوا الساقية التي يريدونها فأرضنا الآن نرويها بالممكن. يومها صنعوا ساقية من الخشب والكرتون. ساقية كده وكده لا تدور ولا تجلب الماء. أنت يا سعيد تذكرني بهذه الساقية.

* * *

كالعادة تغلبه بلسانها فيلزم الصمت.

ولما تنتهي تصفق الباب خلفها بشدة ويحبو سعيد صاعدًا إلى السطح.

- 2 -

سعيد الكسيح لا عمل له.

في طفولته أصابه المرض الذي أتلّف ساقيه.

لم يذهب إلى المدرسة. استعاض الأب بشيخ الكتاب. يأتي الشيخ كل يوم قبل المغرب بساعة. يكون سعيد قد عاد من الحقل. ينزله الأب من فوق الكارو. يحبو داخلاً البيت. تغسل له الأم يديه ووجهه. تغير جلبابه ويجلس منتظرًا قدوم الشيخ.

* * *

حفظ سعيد سبعة أجزاء من القرآن في زمن قياسي لكن غلظة صوته

قضت على حلمه بأن يصير مقررًا للقرآن. لكنه فقد حماسه لما أدركه اليأس فلم يكمل حفظ الجزء الثامن، فأضاع على البيت فرحة حفل ختم القرآن، وأضاع على الشيخ الجبة الصوفية التي وعده الأب بها.

* * *

أقلع الشيخ عن عاداته في الحضور لكن سعيدًا واصل الرجوع من الحقل قبل المغرب بساعة أو يزيد. لم يعد ينتظر الشيخ. يحبو صاعدًا الدرج الحجري. لا يدخل الحجرات إلا عند النوم. يقضي الوقت منذ الغروب وحتى انتصاف الليل في ذلك المربع بين السور الخشبي للسلم والحجرات. مربع كبير طول ضلعه أربعة أمتار يسمونه "الحضير". مساحته هي مساحة عالم سعيد. فيه يرقد شاخصًا إلى طيور يراها في الحقل فمن أتى بها إلى هنا ؟ خاصة تلك التي تسميها أمه "وز عراقي" تظل في طيرانها صامتة حتى تصبح فوق البيت. ترى سعيدًا فتناديه. يمد ذراعيه كما لو كانا جناحين. يحاول تقليد الصوت. يعيد المحاولة، لكن الوز العراقي يواصل رحلته ولا يأبه لرد سعيد.

* * *

يفكر في تقليص المسافة بينه والطيور. فليصعد إلى السطح. يحبو باتجاه السلم الخشبي. يمسك بأولى الدرجات محاولاً الاستناد عليها ليقوم، لكنه لا يستطيع، يظل يحاول ويعيد المحاولة دون كلل، ولا يصل أبدًا للدرجة التالية مهما حاول. يرمق السطح بأسى. ينادي الطيور التي لم تعد في سمائه. يحبو مبتعدًا عن السلم. يعود لرقاده فوق الحصير شاخصًا نحو السماء.

* * *

يسأله الأب ساخراً عن عدد النجوم فيرد بتقليد صياح الوز العراقي. تندب الأم حظها فالابن الذي رجته من الدنيا إبتلاه الله بعد تلف ساقيه بفقدان عقله. تشير عليها جارة فتبخره وترقيه لكنه لا يكف. تهمس في أذنها الجارة باسم جارة أخرى لم يفلح ابنها في حفظ آية واحدة من القرآن. تأتي الأم بقطعة كبيرة من شيء تدعوه " شبة " وتأتي بورقة ومقص. تقص الورقة على شكل عروسة. من صدر جلابها تنزع إبرة وتثقب الورقة ثقباً بعدد الجارات اللواتي رأين سعيداً ولم يصلين على النبي.

تمتلئ الورقة بالثقوب. فتوقد الأم النار. تحرق الشبة. يتسلى سعيد بمتابعة تحولات وتشكلات الشبة المحترقة. تتخذ الشبة في احتراقها أشكالاً عدة، وترى الأم في كل شكل صورة لحاسدة محتملة. تكمل الأم علاجها، فتحرق العروس المألئ بالثقوب ثم تمسك برمادها تعجنه مع بقايا الشبة المحترقة، وترسم بها على جبهة سعيد صلباناً بينما شفتاها تتمتمان ب " قل أعوذ برب الفلق".

- 3 -

اقتراح الأب أن يزوج سعيداً، فاختارت الأم " وطفة " .

اعترض الأب:

- ألم تجدي إلا بنت الكلاف.

- ما لها ؟

- أصلها مثل وشها.

ردت بحسرة:

- الجميلة بنت الأصول لن تقبل بسعيد زوجًا.

* * *

رفض سعيد فكرة الزواج. بكى ورفض العودة من الحقل. سألته الأم عن السبب فلم يجب سوى بمزيد من البكاء، حاولت إغوائه بتلبية رغباته، فاجأها بأن طلب بيتًا هناك حيث الخلاء الواسع. أصر سعيد وألحت هنية حتى رضخ الأب، بني حجرة واحدة على رأس الحقل.

* * *

الدرج الحجري يقود سعيدًا مباشرة إلى السطح، فلا يغادر إلا حينما تلهبه شمس الظهيرة بينما وطفة تعمل في الحقل أو ترعى دجاجاتها في البيت. ولا عمل لسعيد إلا مراقبة الطيور ومناداتها. حتى تلك الطيور الورقية يناديه. أحبها وصاحب صناعها. علموه فصنع لنفسه واحدة. أعجبته فصنع غيرها. أتقن صنع طائرات الورق فأشتهر بها. أصبح سعيدا الطيار. أشارت عليه وطفة :

- ما دمت قد أفلحت في شيء فلماذا لا تكسب منه ؟

- 4 -

يتعجب سعيد لأمرها. شجعتة على صنع الطائرات بغرض بيعها وها هي تلومه الآن. ما ذنبه هو لو مات محمود بن بهانة أو حتى لو ماتت بهانة نفسها. يحبو سعيد صاعدًا الدرج. لم يزل الجو ساخناً لكنه لا يهتم.

في الركن أدوات صناعته، تماما كما تركها بالأمس. يشرع على التو
في صنع طائرة كبيرة، بطول البوصة كلها. يتخيل الشكل فيفرح. ستكون
طائرة ليس كمثلهما طائرة. سيفاجئ بها وطفة. سيمد الطائرة بكل ما لديه
من خيط ويطيرها حتى مستشفى البندر. هناك يمكن أن تراها وطفة
وبهانة ومحمود والجميع.

* * *

الهواء يحمل الطائرة وسعيد يرخي لها الخيط. تعلق الطائرة وتبتعد.
ينتشي سعيد ويصيح كالوز العراقي. تبعد الطائرة وتصغر. تبعد وتشد
الخيط بقوة. يرقب سعيد طائرته ويتمنى لو كان هو الطائر.
"آه لو ينظر - ولو لمرة واحدة - إلى البيوت والحقول من عل.
يكون السطح صغيراً ووظفة لا تبين".

يصيح سعيد مقلداً كل الطيور. يفرد الخيط كله بينما طائرته يبتعد
ويشده، يناديه. يحرك ذراعيه كما لو كانا جناحين، يحبو باتجاه حافة
السطح. ويظل طائرته يشده. يناديه. يناديه. ولا يملك سعيد إلا أن يلبي
النداء.

سبتمبر 2010

المبخرة والمجمرة

(أ)

أبو النمرس مدينة باردة .

لا يكف مرعي عن تكرار هذه المقولة لنفسه كلما زاد ارتجافه.

أبو النمرس بالنسبة له مجرد مكان يصله الأتوبيس بالعاصمة. قصدها صدفة في الربيع الماضي. كانت رياح الخماسين تواصل هبوبها، وكان هو مهدودًا فغفا. عند المحطة الأخيرة أيقظه المحصل:

- اصح .. اصح يا أخ وصلنا إلى آخر الخط.

نظر - عبر زجاج الأتوبيس - إلى المكان الجديد. رأى طفلاً يحملق فيه، الطفل من خارج الأتوبيس يرى الأنف الضاغط على الزجاج مجدوعًا فيضحك. يغادر مرعي الأتوبيس إلى أرض لم يطأها من قبل. يسير على غير هدى بينما رياح الخماسين تلفحه، وفي أذنه صوت المحصل يذكره بالوصول إلى نهاية الخط.

* * *

" نهاية الخط . آه يا مرعي ما أكثر النهايات التي

شهدتها ولم تزل سائرًا على قدميك "

* * *

قصد أول مقهى صادفه. خلع الحذاء ليريح قدميه. طلب كوب شاي ولما أتى به النادل حادثه طويلا مستغلا ندرة الزبائن. سأل عن البلد والسكن وأشياء أخرى. وهو يشرب الشاي تذكر قريته النائية، ربما أصبحت مدينة صغيرة مثل تلك التي يشرب شايها الآن. يشعر بحنين مفاجئ إلى قريته التي لم يعد له فيها أحد. من يعرفه هناك ؟ ربما لا أحد . فالذي لم يتخطفه الموت أدركه النسيان. أنقذ نفسه من الأسى والحنين. بسرعة فكر حاسما الأمر:

- "أنا في كل الأماكن غريب. وما دامت الغربة واحدة فلاسكن المكان الأقرب".

وهكذا قرر مرعي أن يسكن وأسرته في أبو النمرس .

(ب)

تعلم سعاد - ابنة مرعي الوحيدة - أن الرحيل قدر لا فكاك منه. صاحب المنزل حصل على تصريح بالهدم وأمهلهم شهرًا. ما دفعه ليس كثيرًا، لا يكفي للحصول على شقة إلا في مكان بعيد. مكان يقطعه الأتوبيس في ساعة من بولاق أبو العلا إلى أبو النمرس .

* * *

في رحلتها الأولى إلى المدينة الجديدة اكتشفت أمرًا رأتها مهمًا. فالنيل وهي متجهة من بولاق أبو العلا إلى ميدان التحرير كان إلى يمينها ومن بعده الزمالك، بينما النيل الآن وهي متجهة إلى أبي النمرس يكون إلى يسارها ومن بعده المعادي .

* * *

"آه يا نيل ..

شاطئك علامتا فصل ، وأنا بينهما مشدودة. منفية.

تهفو روعي إلى ما قبل أو ما بعد العلامة الفاصلة.

أنا بين قوسيك محاصرة. أكاد أختنق.

اعتاد أبي أن يحذرني من الضياع، يرى بين قوسيك

منجاي، ومفازتي فبينهما – حسبما يرى – شهامة ونخوة

أولاد البلد. وأنا على يقين من ضياعي وتبددي، بين

الفاصلتين أو خارجهما الأمر سواء.

أخي طار فوقهما إلى العراق وعاد ميتًا، ومثله زوجي

الذي مات هناك في الصحراء. ماتا غريبين. ضاعا،

وأنت يا أبي مثلهما، ضائع حتى وإن لم تبرح مكانك بين

الفاصلتين. الآن تقودني يا أبي إلى مكان جديد كل ميزته

هو قربه النسبي من القاهرة . بم يجديك هذا القرب ؟ ..

أنت لا تحتاج القاهرة إلا مرة في الشهر لتقبض قروش
المعاش. تلك القروش التي يمكن أن تصلك في أي
مكان يوجد به مكتب بريد.
فيم يجديك القرب من القاهرة إذن؟
أنت حر في سكنك يا أبي، أما أنا فكل الأماكن عندي
سواء".

(ت)

- هذا شتاء شديد القسوة.

قالها مرعي فأشعلت سعاد النار في كومة أخشاب. تركته - مع
أطفالها - يستدفئون وقامت لتعد حساء العدس. أشعل عود بخور ليبدد
رائحة الدخان. وقبل أن يجيء الحساء انبثقت الفكرة كومضة. سوف يحول
المجمرة إلى مبخرة.

قالها لابنته وهما يأكلان، رفضت فجاهد لإقناعها:

- البلد الذي لا يعرفك فيه أحد ...

لم تدعه يكمل المثل الذي تعرفه وترفض دلالاته. لكنه لم يسكت، راح
يحكي عن مشروعه للمستقبل. علبة من الصفيح. مجرد علبة من الصفيح.
يقتبها من حوافها ثقبين متقابلين. ويأتي بمتري سلك، بل نصف متر يكفي.
يجدل السلك جيذاً، يصله بالثقبين. يجعل منه يدًا للعلبة. يضع في العلبة
رماداً، بعض مخلفات الإستدفاء اليومي، يضعها حتى نصف العلبة،

وفوقها يضع جمرة وحفنة بخور.

هذه فقط عدته. يطوف بها شوارع وحواري أبو النمرس، كل المطلوب منه أن يشعل البخور ويسير. يبخر الحوانيت ومداخل البيوت. يتوقف أمام الدكان أو البيت صائحًا:

- صلي على النبي.

(ث)

يطلق بخوره ويمد يده ، فتمتد أياد أخرى بقطع من العملة المعدنية. ويظل يجوب الطرقات.

(ي)

تنز النار في المبخرة بينما البرد يغزو جسده.

يرتجف، ويظل سائرًا حتى تنطفئ ناره وينفد بخوره.

في الليل يعود إلى مأواه. سعاد تلم صغارها حول الموقد. توسع له مكانًا بجوارها. يدلق قروشه في حجرها. تلمس يده. تفرع:

- أنت بردان قوي يا بابا. إيدك ثلج.

تدلك يديه بيديها الدافئتين. تدمع عيناه بينما يحاول أن يبتسم. تضمه سعاد بحنو ممزوج بالخوف. يذوب في حضنها. تدمع عيناه وهو يهمس:

- تصدقي يا سعاد لأول مرة منذ عمر طويل أشعر بالدفء .

نوفمبر 2008

فاتحة لصاحب المقام

- يا ليلة العيد أنستينا

سمعتها فاطمة من الراديو فامتلت بالأسى، فتحت النافذة، رأت أطفال الحارة يحتفلون بالعيد القادم بعد سويغات الشارع علا مغطيا نافذتها، لم تعد ترى وجوه المارة، لا يبدو لها منهم إلا النصف الأسفل.

"شباكك مثلك يا فاطمة جار عليه الزمن"

لم تعد تفتح النافذة إلا لماما. حولتها من الداخل إلى دولا ب صغير اتسع لكر اكيبها.

" لكن الليلة يا فاطمة ليلة عيد، يجب أن تفتحي نافذتك".

تقولها لنفسها فتدمع عيناها وتلم كراكيبها. تملأ علبتين من الكرتون، تدسهما أسفل السرير، يخفي الداير أشياء كثيرة حتى عن عيني فاطمة التي تنسى ودائعها أسفل السرير المعدني ذو القوائم الصدئة.

* * *

- وجددت الأمل فينا يا ليلة العيد

تنهض فاطمة. تملأ جرتها. تضعها على النافذة ليبرد الماء. تنتهد وتدير مؤشر الراديو فلا تجد إلا نفس الأغنية. يتجدد أساها فتغسله بالاستحمام. ترش أرض الحارة بالماء، ترى الشارع وقد دفن نصف نافذتها، النصف الآخر لا يمنح الناظر من الخارج إلا الداير العلوي للسريـر. تراه وقد تهرأت عصافيره الزرقاء، بعضها طار أو اقتنصته جوارح الزمن مخلفة تقوبا تملأ الداير.

تأسى لحاله. تقرر أن تغيره. تعود لحجرتها، تعلى السريـر، تنزع الداير فتثور أتربته، تسعل وترمى ما في يدها، يرتطم بالأرض فتزيد ثورة الأتربة. تتذكر الآخر، البمبي، قماشه من الساتان وليس قطنيا كذلك الأبيض الرث، تحتفظ بالداير البمبي داخل كيس خاص، تضع معه زجاجة عطر، لا تخرجهما إلا في مثل تلك الليلة.

* * *

- يا ليلة العيد

كان البمبي لونا لليلات أعياد فاطمة، فالزوج كان ينزع عن نفسه غلالات الإرهاق والكمد فتكتمل بهجة العيد. ترى ما في الكيس فيطفع أساها، زجاجة العطر فارغة والبلى أدرك الساتان، فكيف تستقبل العيد؟

مازال الراديو يغنى لليلة العيد ، ووجه رجلها يطالعها عبر الصورة ، يدعوها فتتهض. تمسك بالصورة ، بجلبابها تمسح الأتربة عن الزجاج ، تجلو الإطار، تلوذ بالوجه المطل، تتحسس ملامحه، تسمعه يلومها فتعتذر، في الغد ستزوره ، تضع ريحانا على قبره وتقرأ الفاتحة وكل ما

تحفظ من القرآن. يغمرها أساهها، تقرر ألا تدع السرير عاريا. تسند الصورة إلى المخدة وتخرج مقررة شراء داير ساتان بمبى جديد. لم تجد إلا ساتانا أخضر، البمبي وحده يليق بالعيد، لكن السرير عار، تعود بالأخضر وتنسى شراء العطر. تغلق الراديو فلا تسمع يا ليلة العيد.

* * *

حتما ستمر الليلة مهما كانت ثقيلة وفي الغد ستهرع إلى رجلها، ستعرج أيضا على أمها وأبيها، تقرأ الفاتحة وتشكو ما بها. لم تعد على الشكوى لرجلها، كان يعود مرهقا، تراه بحاجة لمن يخفف عنه، فتلزم الصمت.

تتذكره في مرضه الأخير، اصفرار وجهه وروحه التي ذبلت تدريجيا، تركها وحيدة واستراح.

* * *

فجأة تنتبه إلى أن ثمة من يتلصص عليها عبر النافذة المفتوحة. تخرج عازمة على الإمسك به مثلنسا. ستفرغ فوق رأسه كل مرارتها. تري رجلا ريفيا يجلس القرفصاء بينما عيناه مثبتتان علي السرير، تسمعه يتم بكلام كثير لم تتبين منه إلا وعدا بدسته شموع. تصبح التمتمة همسا وهو يرفع يديه لأعلى، تسمعه يقول: آمين، تراه يمسح جبهته بكفيه، تفاجئه ممسكة بثوبه من عند الكتف، تصرخ:

- ماذا تفعل يا بن ال ... ؟

يُفاجأ الرجل، مذعورا يدفع يدها، يشير إلى الداير الأخضر:

- أقرأ الفاتحة لسيدي وأرجوه.

- سيدك من؟

- صاحب المقام

شيء ما بداخلها يدفعها لتصديقه. تكتم رغبتها في الضحك وهي ترى
الرجل لائذا بالفرار.

وفى حجرتها تظل تضحك حتى تمتلئ عيناها بالدموع.

مارس 2010

بيت البحارة

لم يكن الحصول على ثمار التوت الأحمر اللذيذ دافعا وحيدا لتسلقي الشجرة، حكايات الولد بهلول كانت السبب الأقوى، فغالبت خوفي ونسيت تحذيرات الأهل وتهديداتهم. تحدث الولد بهلول عن كل شجرات التوت في قريتنا، وكيف أن ثمارها سوداء، وأن شجرة البحارة هي وحدها التي تثمر توتا أحمر قانيا. سألني إن كنت أعرف السبب؟، أجبت بحركة من يدي وشفتي تعني أنني لا أعرف سببا.

هو كان يعرف، قال أن جده الراحل كان قد حكى له ليمنعه من تسلق الشجرة واشتهاء توتها. أخبره إن الشجرة مسكونة. اندهشت فقاطعته سائلا عن الساكن، أشار لي مطالبا بالصبر وألا أقاطعه، لكن لم أطق صبرا فأعدت السؤال، فبسمل وتعود قبل أن يجيب هامسا:

- جنية البحر تسكن الشجرة، تغادر البحر هربا من القمر حينما يتلأأ فوق سطح الماء، تختبئ بين الفروع وتبكي دما، وحينما يختفي القمر تعود إلى البحر.

- وكيف عرف جدك بحكايتها؟

- رآها ذات ليلة مقمرة، اتخذت هيئة سمكة ضخمة شقت الماء قافزة لأعلى، لتسكن الشجرة المائلة على البحر.

توحشت الدهشة ففغرت فمي ، أقسم أنه هو أيضا رآها، لم تكن في عز صباها كأيام الجد، فلم تكفها قفزة واحدة لتصل إلى الشجرة، أسرعت زاحفة لتختبئ في بيت البحارة، رأى شعرها الطويل محلولا، جرى خلفها ناوليا شدها منه، في اللحظة الأخيرة ارتجف، تراجع، خشى أن تلتفت خلفها فتراه، تخطفه.

أسرع الجد بالاختباء بين أفرع شجرة التوت، طال به الوقت فتشاغل بأكل التوت اللذيذ، ومراقبة نافذتي بيت البحارة المواجهين للشجرة بأعمدهما الحديدية، إحدهما كانت مغلقة من الداخل، أما الثانية فكانت مواربة، لحسن حظه استطاع أن يرى الجنية من مكمته، أمامها حلة كبيرة مملوءة بالماء، وضعت يدها تحت الحلة فسخن الماء في ثوان، أقسم بأنه سمع صوت غليان الماء ورأى البخار كثيفا، جال بخاطره أن الجنية قد تتحول لكتلة لهب تحرق الشجرة، فامتأ قلبه رعبا، عندئذ عاف الفرجة وأكل التوت، وأسرع عائدا إلى البيت لائذا بحضن أمه.

استعاد ما كان يقول الجد عن البحارة، وكيف أن جدهم الأكبر لم يكن بحارا، كان فلاحا أجيرا، يسكن كوخا عند التربة، وذات مرة نزلها ليستحم، لسوء حظه طلعت له الجنية، سبق أن طلعت لكثيرين، كل فيضان تسحب اثنين أو ثلاثة من الشباب إلى مسكنها تحت أرض قاع التربة، قليلون من كتبت لهم النجاة، وكثيرون غلبتهم، تسحبهم إلى مسكنها، تمتص رحيق حياة الواحد منهم، وبعد أيام تلفظ جثته، تطفو على السطح طالبة الستر والموارة في مستقرها الأخير. جد البحارة كان

يعرف سرها، تعلم مما حدث لعواد الذي رآها وهي تشق الماء، كان يادوب نزل الماء برجله، فجرى، الخوف أنساه التقاط هدومه، انكفاً عارياً فطالته، اكتفت بمسه ولم تسحبه إلى الماء، تركته ليجده الناس في الصباح فاقدًا الوعي، ولما أفاقوه ظل يهذى بما لم يفهمه أحد. أيضا كان الولد بهلول يعرف ما جرى للولد رشاد ابن الباتعة، كان قويا فقاومها، لم تقدر عليه فلم تسحبه لمسكنها، اكتفت بأن سلبته عقله، من يومها وهو يهيم في الطرقات مطاردا من أولاد أشقياء يرمونه بالحصى والشتائم.

جد البحارة كان صديقا لعراف غجري، قدم له معروفا فرده العراف بما هو أحسن منه، أطلعه على سر الجنية ونقطة ضعفها، لذا لم يخف جد البحارة منها حينما طلعت له، ثبت مكانه حيث كان يسبح، انتظر وصولها إليه، ظنت ثباته خوفا، رآها تفك ضفائرها، تطلقها في كل اتجاه، ليصل شعرها من الشاطئ إلى الشاطئ، وبقي هو مكانه، ينتظر أن تشب الجنية بجذعها متأهبة للهجوم عليه، تربص ملتصقا نقطة ضعفها، فلما شبت، وبان ثدياها، رآهما كعنقودي عنب، تماما كما وصف العراف، بادر الجد بالهجوم، احتضنها مطبقا بفيه على أحد ثدييها، كان ملمسها زلقا، كادت تنفلت، أسرع بضم حبة عنب، صرخت الجنية، ولولت، خارت قواها فاستسلمت، أصبحت كالإنسية، أبهى من أي إنسية، وأشهى، وأضعف.

لم يفلتها، جرها إلى الشاطئ، أدخلها الكوخ، وعاشرها كأنسية، لم تعد إلى الماء طوال حياة الجد، نزل هو الماء صيادا، هجر الفلاحة، واكثرى قاربا، يرمى الشبكة فتملأها أخوات الجنية بالسّمك، لتأكل أختهم التي أنجبت للبحار أولادا ورثوا القارب والشبكة وبنوا بيتا مكان الكوخ، أما الجنية فعادت إلى الماء لا تصعد إلا حينما تشتاق لرؤية أحفادها. حكايات الولد بهلول جعلتني أغالب خوفي وأسعى لرؤية الجدة الجنية،

انتظرت ليلة اكتمال القمر. فتسلقت الشجرة مستعينا بالضوء، أكلت من التوت الأحمر، وكانت النافذة مفتوحة، ظل قضبانها ارتسم على فراش البحار الابن، كان يسعل وينادى ذاكرا أسماء أولاده:

- ردوا على يا أولاد الحرام، هل أصابكم وأمكم الصمم. كوب ماء يا أولاد الحرام.

أنت له امرأة شعناء بالكوب:

- اشرب، إن شاء الله يكون آخر زادك.

- تتمنين موتى يا جاحدة.

- طلباتك لا تنتهي، ولسانك لا يخرس، فلتمت لتريح وترتاح.

قذفها بالكوب الفارغ، أصاب جبهتها فهجمت عليه، تجره، تلقيه من فوق الفراش، تضربه بقسوة وهو يصرخ، وجدتني أكشف عن مكمني برعونة، وأصرخ فيها:

- سيبي الرجل يا بنت الكلب

رأيت ظل القضبان يرتسم على وجهها وهى تحدجن:

- بتعلم إيه عندك يابن ستين كلب، انتظرني خارجة لك.

قفزت مغادرا الشجرة، جريت بأقصى ما أستطيع محاذرا النظر خلفي، بينما كان سباب الجنية يطاردنى.

ديسمبر 2013

الظل والقربان

1

صورة قديمة تجمعهما، ورسالة احتفظت ببعض عطرها ملأتا عينيه
بالأسى الذي امتد كاسيا كل ملامحه.
وحينما طالع وجهه في المرأة ، فاض أساه ليغمر كل الكون.

2

أشعل النار في الرسالة لعل الأسى يحترق.
وفى المرأة رأى ظلا ضخما يتجسد خلفه.

3

لما ذوت الرسالة اختفى الظل من المرأة، وعاد الأسى يملؤه.

4

قدم الصورة القديمة قربانا لعل الأسى لا يعود، قرب لسان اللهب من طرف فستانها، وتابع السريان الشره للنار، ولما طالبت النار وجهها عاد للمرأة، لا أثر على وجهه، لكن الظل الضخم عاد يتجسد خلفه.

5

يصرخ فيتوحش الظل، يزداد تضخما، يرقص شمالا بينما النار تستعر في الجسد الذي غادره أساه.

يوليو 2019

وحيدان

(1)

هل تعرف العصافير البطر؟

عصفوري لم يعد يغنى. هل ضاق بالقصص؟ أما يعجبه الطيران في فضاء لم يعرف غير رفيف أجنحته؟ حقا فضاء الققص ليس شديد الرحابة، لكن أما يكفيه أن طائرا آخر لا يشاركه التحليق فيه؟ هو حقا عصفور بطر.

(2)

وحدى.. لم يعد الكتاب أنيسا، والذكريات باتت كنيبة، والزمان توقف. يستبد بي الضجر، أغادر الفراش إلى المطبخ. أحمل كوب الشاي إلى الصالون. ولما أفرغ منه أعود للتمدد في الفراش.

(3)

أفتح باب القفص، يقترب العصفور بحذر، يهم بالخروج ثم ينكص.
أتراه يخشى من خدعة محتملة؟
أتشاغل عنه وأدع باب القفص مفتوحا، فلا يضيع الفرصة. ينفلت.

(4)

يستبد بي الضجر.
أفتح كل النوافذ لكن العصفور البطر لا يعود.
طائر الضجر اللعين ينفرد بي، يستبد.
رغم بطره إلا أن عصفوري كان أنيسا. فلأغادر بحثا عنه.

سبتمبر 2000

انتظار

لم يستقر العصفور في وقفته. تابعت تقافزه المستمر، وتبديله للساق الحاملة للجسد النحيل. عجبت لقدرة رقبته على التلفت المستمر يمنة ويسرة، لم تسكن لحظة.

يتأهب للطيران، يشرع الجناحين، كأنه يجربهما قبل الانطلاق، يتراجع، يخفضهما، يطويهما، ينكص عائدا للتلفت والوقوف على ساق واحدة يبذلها كل ثانيتين. ولما يمل يشرع في المشي فوق إفريز الشرفة، ويعاود الوقوف، يتقافز من حافة السور وحتى منتصفه ثم يعاود الوقوف، كأنه ينتظر شيئا.

وفجأة ينطلق طائرا، ارتفع فوق السور بمتر، طار ربما لثلاثة أمتار قبل أن تطاله الحصاة التي أطلقتها نبلة الصبى. رأيت العصفور يخبط بجناحيه وكأنه يخمش الفضاء، يفتح منقاريه للمرة الأخيرة ، وفجأة يكف عن الارتجاج ويهبط عموديا معانقا الأرض، لاحقا بقطرات دم قذفها منقاره في ارتجاجته الأخيرة.

سبتمبر 2019

خلاص

الأشجار كثيفة الأفرع على جانبي الشارع تطاول الشرفات. تمتص نور الأعمدة ثم تعود لتسكبه على الأرض ظلالة. الظلال تفرش بساطا في الشارع، وثمة أشعة ضوء شحيح تنفلت موشية بساط الظل بغصون.

نسمة تسرى موسعة الفرجة بين فرعى شجرة ليمر الضوء كثيفا راسما دائرة، المحيط غير المنتظم للدائرة يبدو وكأن مزقة في بساط الظل، الذي وطأته مرارا وأنا أحاول قتل ملل الانتظار بالخطو الوئيد. أكملت انتظاري بالوقوف عند الزاوية، بضجر أعاود النظر في ساعتني، قبل أن أرسل ناظري يمسان الأفق بحثا عنم أنتظر.

لم أفلح في قتل الملل فقررت الانصراف، وطأت بساط الظل. لمحت قطا منكشا جاعلا من نفسه مركزا لدائرة الضوء. أقترب منه، يسمع وقع خطاى، يرمقني بخوف، يزداد انكماشاً، يدور حول نفسه ببطء، قبل أن ينطلق أمامي. أتابع هروبه، وهو ينظر خلفه بفزع مواصلا الفرار. وعند آخر الشارع توقفه سيارة مسرعة، يجد نفسه محاصرا بين عجالاتها

والأسفلت، وعندما لحقت به لم يعدوا مواصلا فراره، فقد تخلص من خوفه حينما ثبتته عجلات السيارة على الأسفلت.

سبتمبر 2019

سؤال

طالعك الوجه في المرأة، تفجر بداخلك بئر أسى. غمرك شعور عميق بالشفقة عليه، لم تستطع تحديد أسباب الشفقة، فهل ترجع لياقة الجلابب المتهدلة، والمثني نصفها للداخل أم لانتفاخ تراه حول العينين؟ هل للعشب النابت في الوجه (لم تزله منذ أيام) أم للشعر الأشعث الطويل؟ (لم تحب أبدا الشعر الطويل).

تعيد التحديق في الوجه المائل بالمرأة. يستدير الانتفاخ بالعينين المحمرتين. تراهما صالحتين لوجه بومة. تتطير من ذكر الطائر المسكين. تترك العينين إلى الأنف. تراه أكبر مما يجب. تفكر في أنه يستطيل. تستمر استطالته. يصبح خرطوما لفيل. فيل عجوز خائر القوى، تضجره الوحدة ويستبد به الإحساس بالحزن والجوع.

تدفعك الشفقة لأن تخلع عنه الجلابب. يلبس غيره. تذهب به إلى الحلاق. تقف به طويلا تحت الماء الدافئ. تعود به إلى المرأة. اختلف كثيرا عن ذلك الذي أطل في مرآتك قبل ساعتين، تمشط شعره الذي قصر كثيرا. تتعرف بسهولة على الملامح التي تشبهك.

خف قليلا الانتفاخ حول العينين. لم تعد قواه خائفة تماما. تصنع له
فنجان قهوة. يمد يده وهو يذكر بك بضغط الدم المرتفع وتحذيرات الطبيب.
بسهولة تقنعه بأن فنجانا واحداً لن يضر. تنفرد به في الشرفة، تسأل وهو
يرشف القهوة المرة بتلذذ عن سر الحزن الكامن فيه؟

إبريل 2012

المخبوء

يوقن الرجل الوحيد بأن ثمة كنزاً مخبوءاً أسفل الجدار، خبأه الجد لأجله، والجد ما يفتأ يزور حفيده في المنام ليلة بعد أخرى، يطالبه باستخراج الكنز، أراه مكانه لسبع ليالات متعاقبات، أيقن الحفيد من صدق الرؤيا، فلا يجب أن ينكص أو يتقاعس.

* * *

حفر في المكان الذي حدده الجد، لم يجد شيئاً أترى شيطاناً تقمص صورة الجد ليضله أم أن الجد هو من أضل حفيده؟
قيل عن الجد إنه ولى صالح ذو كرامات، هو إذن لا يكذب أو يدع الشيطان يتمثل بصورته.

* * *

واصل الحفر، وقبل أن يتمكن منه اليأس ارتطمت حافة الفأس بجسم معدني. أخيراً وجد ضالته. يهتف بفرح:

- الكنز.. الكنز.

* * *

يستخرج الحفيد صندوقاً من الحديد الصدى، عالجه بالفأس حتى فتحه،
تناثرت محتويات الصندوق على الأرض. ثمة أشياء بدت له بلا قيمة:
زجاجات فارغة، رضاعات أطفال، عدد كبير من المفاتيح مختلفة
الأشكال والأحجام، حطام لعب أطفال، وكيس ملئ بالمسامير، وقناع كبير
من الورق المقوى.

* * *

أترى المفاتيح هي مفاتيح الكنز، والأشياء الأخرى للتعمية أو التمويه
أم أن الخبل قد أصاب الجد الحكيم في أخريات أيامه؟

* * *

راح يطوف بالحجرات. يجيل النظر في الأسقف والجدران. الندوب
تملاً أوجه الحوائط تأملها فاكتشف أنها ترسم صورة للجد. يبدو إنه كان
آثماً فاستحق أن يصلب على الجدران إلى الأبد.

قرر أن يدق المسامير في الجسد المصلوب، ولما نفذت علق فيها
محتويات الصندوق، فغطت كل ملامح الجد، ولما فرغ تأمل الجدار
فهتف:

- الكنز .. الكنز.

قفز وخبط رأسه بيديه والأرض بقدميه. فقد صنع من محتويات

صندوق الجد لوحة رائعة، سيحول البيت إلى مزار، يدفع الزائر جنيها ليرى اللوحة، وخمسة إن أراد التقاط صورة لها.

* * *

أعاد التأمل فاكتشف فراغاً في منتصف اللوحة، أعلق فيه الصندوق؟ لا، فالصندوق صدى وقميء. فكر ثم علق مرآة، ليملاً كل مشاهد بوجهه فراغ اللوحة.

* * *

نظر في المرآة، اكتشف شبها بينه وبين الجد. له نفس الملامح المصلوبة على الجدار. أغمض عينيه، فرأى نفسه يتأرجح في المساحة الخالية، عاودته النشوة لاكتمال اللوحة، أحضر حبلاً. يثبت أحد طرفيه في أعلى الجدار، يلف الطرف الآخر حول رقبتة قبل أن يقفز في الهواء.

ديسمبر 1998

غواية

بوجف ووجل رحت أنزع عنها الثياب.ولما بلغ العرى تمامه امتدت
يدي لمامسة البهاء، تروم التيقن من إنه ليس وهما.ولما تأكدت أرسلت
شفتاي تمسحان الدروب التي اكتشفتها الأصابع.

* * *

توجست من الغرق في بحر عينيها، لاحظت فأطبقت عليهما الجفون،
افتقدت البحر، رجوتها أن ترده لي، قبلت الجفون فانمحت، وضاع منى
البحر إلى الأبد.

* * *

لثمت الشفاه وطابع الحسن ، كل ما عشقت في الوجه الجميل.وكلما
تطأ شفتاي موضعا ينمحي، ضاعت كل الملامح الجميلة.

* * *

بدأت رأسها مثل بيضة رخ، وعند أعلى الرأس، تماما في الموضع الذي كان مفرقا للشعر، اكتشفت ثوبا صغيرا لا يكاد يبين. خفت أن تنفخ البيضة، يخرج على منها الرخ، قررت أن أستبق الوحش وأقتله.

* * *

لم يكن على الأرض إلا حذائنا والملابس، بحثت فلم أجد إلا منفضة سائر زجاجة ثقيلة، يمكنها تخليصي من الوحش. هويت بها على البيضة فتهشمت.

* * *

رسم الدم على الملاء خريطة لعالم تمنيته، لحظتها أدركت بؤسى، صرخت فاسود الأحمر، صرخت فاستحال دودا، جيوش من الدود الأسود احتلت فراشي، انقبضت معدتي، قننت خمر النشوة ملوثا الجسد المسجي الذي لم تفارقه الفتنة بعد.

ديسمبر 1998

الآخر

ثمة صوت يبدد سكون الليل، يبدأ خافتا ثم يعلو رويدا رويدا. يشبه صوت دقات الساعة في رتابته وانتظامه، لكنه ليس صوت دقات الساعة. أبحث عن مصدر الصوت الذي استفزني، أريد أن أخرسه، أظل أبحث حتى أجده، رأيت رجلا يعتلي جدار منزل قديم، يمسك بمعول، يضرب به الجدار، ويظل يضرب حتى يئن الجدار ويتهاوى، تتساقط الأحجار من الجدار، ترتطم بالأرض، فيتناثر الغبار ويتعالى حتى يحتل المكان كله. يضيق صدر الرجل فيسعل، ويبصق بينما المعول لا زال يضرب الجدار. والجدار يئن ويحدث به شرخ، والشرخ يتسع كلما تواصل الضرب، حتى يصبح كفم وحش خرافي.

يظل الفم المفتوح متربصا حتى يتهاوى الجدار، فيبتلع الرجل ومعوله، رجال آخرون يصرخون، صراخهم يقتل صمت الليل، ويظل يعلو مدعورا يائسا حتى يبتلعه صوت ارتطام ما تبقى من الجدار بالأرض.

* * *

أهرع مع رجال كثيرين إلى المنزل القديم الذي أصبح مقبرة، نرفع الأنقاض وجثة الرجل الذي مات وهو قابض على معوله، نخلص يده من المعول ونذهب به إلى مقبرة أخرى أكثر عتامة، لكن شيئا ما دفعني إلى العودة، ظللت أبحث بين الحطام والركام عن شيء ما لا أعرفه، لم يكن هناك إلا التراب وبعضه اكتسب لزوجة ولونا داكنا من أثر اختلاطه بالدم، لكن واصلت البحث.

* * *

كان التراب طريا، فالدم لم يجف بعد.

وجدتني أمد يدي، أجمع كل التراب المتشرب بالدم، أصنع منه شيئا يشبه الدمية، لا ليس دمية، بل هو الرجل صاحب المعول، أشعر بكراهية تجاهه، لا أعرف لماذا؟، حقيقة لا أعرف سبب كراهيتي له، ولا أعرف حتى إن كان يشبه الرجل الآخر أم لا يشبهه؟، لم أتفحص ملامحه، الضوء الشحيح في الليل لم يدع لي فرصة تأمل ملامحه، لكنه ربما يشبه ذلك الآخر الذي أفلقني بضربات معوله. ربما يشبهه.

* * *

أضغط رجل الطين المتشرب بالدم بين أصابعي، يفاجئني تأوّهه الذي يعلو كلما واصلت الضغط، يصبح التأوّه صراخا، الصراخ يصيبنني بالفزع فأرمي الرجل وأجري مبتعدا. أظل أجري حتى تخور قواي فأقف مضطرا، أنظر خلفي فأكتشف أنني لم أبتعد كثيرا.

يأتيني صوت رجل الطين المتشرب بالدم، يناديني، يطلب الغوث،

شيء ما بداخلي يدعوني لأن ألبى النداء، أقترّب منه، أرفعه عن الأرض،
أحدق فيه، أتبين ملامحه، أجده يشبهني، لا، الأمر ليس مجرد تشابه،
أكثر كثيرا من ذلك، إنه أنا، نعم هو أنا.

يبتسم حينما يتأكد من أنني تعرفت عليه، أسأله:

- هل كان الآخر أنا؟

يوصل الابتسام، يمد يده الصغيرة مصافحا، تفرّغني حركته، فأرميه
وأجري مبتعدا، وكلما نظرت خلفي أجده يطاردني، يتعقبني، فأظل أجري
ولا مفر، لا مفر.

أغسطس 1994

عيون

تضييق بنظرات الرجل.

منذ دخولك المقهى وعيناه تتابعانك. لم يخف نظراته الفاضحة لفضوله، لكن إن التقت عينكما تلجأ نظراته للفرار، يرميهن بين قدميك.

تفكر في توبيخه، تهتم بأن تسأله في غضب عن سر تحديقته فيك، لكن كبر سنه والأسى الطافح من ملامحه يمنعانك، وإن لم يبددا شعورك بالضيق. لكن نظراته لا تكف عن مطاردتك، تتعجل النادل، تزجره بعينيك، يبعد عينيه لثواني ثم يعيدهما إليك، يتركهما بين قدميك حتى تشرب شايبك، ينز بداخلك السؤال: من هو؟

تهتم بالخروج فينهض، يسبقك إلى الشارع وهو يخطط بالفرشاة الخشنة على صندوقه الخشبي، تتباطأ وتتركه يبتعد، تبحث عن بقايا نظراته بين قدميك عليها تخبرك شيئاً، ترى حذائك وقد تغطى بأترربة كثيفة، حينئذ فقط تدرك سر فضوله.

مارس 2015

الثابت والمتحول

(1)

لم يكن قد مر شهر على استلامي للعمل، حينما اقتحمت مكتب المدير غاضبًا، وشاكياً من زميل ضبطته يأخذ رشوة.

(2)

ولم يكن اليوم نفسه قد انتهى حينما حكيت في البيت عما حدث وأنا مفعم بالسعادة.

(امتدحت أُمي حسن تربية الأب . والأب امتدح تديني وحسن أخلاقي، وقرأت: "القناعة كنز لا يفنى" كانت على الجدار معلقة).

(3)

في اليوم الذي يليه فضحت الزميل المرتشي، وحكيت عن فعلته لكل العاملين في المصلحة.

(4)

ولم يكن الشهر الثاني قد انتصف حينما عدت للبيت حزيناً لأن المدير نقلني إلى مكان آخر بعيد.

(خلعت أُمي طرحتها ودعت - بشعر رأسها العاري - على المدير ، ربت الأب مواسياً على كتفي بحنان، وقرأت: "الصبر مفتاح الفرج" ، أيضاً كانت معلقة على الجدار) .

(5)

في المكان الجديد حكى زميلي الجديد عن المرتب الذي ينفد بعد أسبوع وعن أمه المريضة والزوجة الولود ومطالب العيال التي لا تنتهي، لذا لم أخبر أحداً بأنني رأيته يأخذ رشوة.

(6)

وذات يوم عدت للبيت حاملاً أكياس ملؤها أرطال لحم وفاكهة.
(فتح الأب وقضم تفاحة . ودعت الأم بأن يوسع الله في رزقي، بينما تحاشيت النظر إلى الجدار).

مارس 1988

المسألة نسبية

هو شخص عادى جدا، إن رأيتَه وسط جمع من الناس لا تلحظ فيه شيئا يميزه عن سواه. لكنه في عيون أطفاله أهم رجل في الدنيا ، وهو بما يرونها سعيد.

* * *

في الليلة الفائتة بذل مجهودا مضنيا حتى ترضى عنه امرأته، فلما رقت انتفخت أوداجه وشعر كأن قامته تطول.

وصباح اليوم غادر إلى عمله، وبداخله يقين بأنه أطول قامته من بقية خلق الله. لكن يقينه شابه شك وهو يخوض في مياه المجاري، سادا أنفه، أما الانحسار داخل الأتوبيس بعد انتظار طويل ممض، فقد جعله يسلم بأنه ليس الأطول قامته، وإن ظل الفخر بطول قامته يلزمه.

* * *

أحس بقامته تقصر شيئا ما وهو يستمع صامتا لتوبيخ رئيسه المباشر

منفلت اللسان، وزاد إحساسه بالقصر وهو يمثل أمام المدير العام.

لم يكن الوحيد، كل الزملاء حضروا، أخبرهم المدير العام بفحوى مكالمة السيد وكيل أول الوزارة. أعلمهم بأن معالي الوزير سيقوم بزيارات مفاجئة لأماكن تابعة لوزارته، والمسار المحدد لموكب سيادته سيمر من نفس الشارع الذي تقع فيه مؤسساتهم.

* * *

لم تزد مهمتهم عن رفع اللافتات وترديد التهتافات، كانت اللافتات معدة، وثمة ملقن يرددون خلفه التهتافات، وكلما علا صوته كان إحساسه بقصر القامة يتزايد.

ولما مر الموكب، وانفض المولد كان إحساسه بالقصر قد بلغ مداه، لذا ابتعد عن الجموع، وسار إلى جوار حائط ناظرا إلى أحذية المارة محاذرا أن تطأه.

مايو 1988

المصباح

بدا المصباح العتيق مختلفا عما ألفت من المصابيح.

تمنيت لو يكون مصباح علاء الدين الذي يداعب أحلامي منذ الصبا،
آه لو يكون، لو يحقق لي خادمه كل ما قصرت حيلتي دون تحقيقه، لو
ينتهي شقاء العمر، لو

دعكت المصباح بهمة وإلحاح، ظللت أدعك لأفك أسر العفريت. ولما
انفلت ورأيتَه خررت مغشيا على.

ديسمبر 2019

رؤى نقدية

منشورات «الف ياء AlYaa»

قصص "أحمد رجب شلتوت" من منظور وجودي

دراسة الدكتور: ماهر عبد المحسن

عندما يقدم الناقد على تناول عمل ينتمي إلى المجموعات القصصية أو الشعرية أو حتى المقالة فإنه، بطبيعة الحال، يقرأ العمل أفقياً بنحو كلي، ثم يعود للكتابة بالمنطق نفسه مستشهداً ببعض الأمثلة من المجموعة موضوع الدراسة، غير أن هناك نوعاً من الأعمال يحتاج إلى التوقف عند أجزائه ووضعها تحت مجهر البحث والتحليل، لأنها تحمل من الرموز والدلالات ما يستدعي تلك الوقفة التأملية العميقة، ومن هذه الأعمال المجموعة القصصية "فاتحة لصاحب المقام" للكاتب المبدع أحمد رجب شلتوت، التي سنتناولها الآن في هذا المقال.

وبهذا المعنى تضعنا المجموعة في حرج، لأن القراءة الأفقية الكلية حتماً ستظلم الكثير من القصص، والقراءة الرأسية الجزئية تحتاج إلى دراسة تفصيلية يتجاوز حجمها حجم هذا المقال الصغير خاصة أن

المجموعة تحتوي على ما يجاوز الخمسين قصة، لذلك سنحاول أن نتخذ طريقا وسطا يحقق الميزتين مستفيدين من كون المجموعة، من ناحية الشكل، تنقسم إلى قسمين، وكل قسم يضم نمط خاص من القص يمكن دراسته بمفردة كعمل مستقل، كما يمكن دراسته في سياق جدلية فكرية تجمع بينه وبين القسم الآخر، ووفقا لهذا الاحتمال الأخير ستمضي قراءتنا.

إذا بدأنا بالغلاف كواحد من المداخل الهامة إلى عالم المجموعة ، فسند نافذة متهاكلة، نصف مفتوحة، تنصدر منزل قديم متآكل الجدران، وأمامها عربة يد متهاكلة أيضا ومقلوبة علي الأرض. فتحة النافذة أمام القارئ تعكس معني الفضول وتستدعي فكرة التلصص التي طرحها سارتر في "الوجود والعدم" . والحقيقة أن الروح السارترية ستظل سارية على مدار المجموعة بقسميها وإن كانت جدلية "الوجود والعدم" سوف تغلب علي قصص القسم الأول، المرتبط بعلاقة الأنا بالآخر، حيث تتخذ شكل الصراع بين "الحياة والموت"، كما ستغلب على قصص القسم الثاني، المرتبط بعلاقة الأنا بالأنا، روح التأمل الفلسفي في الطبيعة والموجودات بنحو يذكرنا بتأملات روكتان في رواية "الغثيان".

ويؤكد الغلاف تلك الروح الفلسفية الوجودية في طلاء النافذة الذي يتراوح ما بين الأخضر والأسود في رمزية تعكس علاقة التجاور التي بين الحياة والموت، والتي تصل إلى درجة التداخل في الطلاء الأخضر المائل إلى الاسمرار على الضلفة اليسرى المفتوحة من النافذة، كما توحى قتامة الألوان التي تبطن ضلف النافذة من الداخل، ولمعانها من الخارج بأن الذين يسكنون هذه البيوت تبدو عليهم مظاهر الحياة من الخارج بينما هم، في الحقيقة، يحملون بذور فنائهم في الدخول، أو أنهم موتي يتحركون

وكانهم أحياء.

يؤكد هذا المعنى عربة اليد المتهالكة، التي ترمز إلى قلة الحيلة وضيق ذات اليد، فوسيلة الرزق أضعف من أن تحقق للمتعبين حياة كريمة، غير أن وجود العربة في صدارة المشهد إنما يعكس حضوراً قوياً للوسيلة والإصرار على السعي لمواصلة الحياة ولو بأقل القليل.

عنوان المجموعة "فاتحة لصاحب المقام"، الذي يتقاطع مع عربة اليد في صورة الغلاف يوحي بوجود بعد روحاني يغلف حياة البسطاء، وأن وسيلتهم للعيش تتأرجح ما بين السعي الحثيث لطلب الرزق وبين التوسل بالزيارة والدعاء للأولياء الصالحين، هذا بالرغم من أن القصة التي تحمل العنوان نفسه تنحو أكثر باتجاه المجاز والرمز الذي يبعد عن المعنى المباشر الذي قد يتبادر إلى ذهن اللوهلة الأولى.

وصورة الغلاف، بهذا المعنى، تلخص الاتجاه العام للمجموعة وتقدم مجموعة من المفاتيح التأويلية التي يمكن أن تساعد في فهم العمل وتفسيره.

وفي هذا السياق، سينقسم مقالنا إلى مبحثين: جدل الأنا والآخر، وجدل الأنا والأنا.

المبحث الأول: جدل الأنا والآخر:

إن علاقة الأنا بالآخر من السمات الأساسية جداً في المجموعة، ويمكن أن نلاحظ ذلك منذ الإهداء، والكلمات الافتتاحية، ففي الإهداء نقرأ:

إليهما:

"محمد وشذى... جناحي المخلقان بعيدا.. بعيدا حيث لا خرائب"

فمن الواضح أن الكاتب يهدي كتابه لابنيه، على الأرجح، وهما جزء منه بطبيعة الحال، غير أنه جزء ينطوي على مفارقة وجودية صارخة، لأنهما يرتبطان به وينفصلان عنه في الآن نفسه، وفي كل الأحوال فهما وسيلته للفرار من الواقع الخرب، سواء بالحلم أو بالحقبة.

فهناك دائما ميل إلى التوحد بين الكل والأجزاء، بين الأنا والآخر، يتأكد ذلك في استدعاء مقولة خوسيه ساراموجو:

"إن كل واحد منا هو القلق الخاص بنا جميعا".

فالقلق، وهو تجربة وجودية أصيلة، هو الذي يوحد الفرد مع المجموع بحيث يكون الناتج كيانا كلياً شاملاً، فالقلق عندما يتسرب من الفرد إلى الجماعة إنما يجسد شكلاً من أشكال التعاطف الإنساني الذي يحيل الخبرة الذاتية إلى تجربة مشتركة، ويتأكد ذلك بنحو أكثر في مقولة بابلو نيرودا:

"ربما لم أعش حياتي قط، ربما عشت حيوات الآخرين".

فالمشاركة هنا ليست بصدد تجربة جزئية، كالقلق، تعكس مظهراً واحداً من تجليات الوجود، ولكنها تعكس خبرة الحياة نفسها، ما يجعل فكرة التعاطف هي السمة الأبرز في علاقات الأنا بالآخر، وهذا ما سنلاحظه في العديد من قصص المجموعة، بل يمكننا القول إن علاقة شلتوت (الكاتب نفسه) بشخصيات العمل إنما هي لون من التعاطف الذي لا يمكن أن نتعاطى مع القصص ونفهمها دون أن نضعه في الاعتبار.

وإذا كانت فكرتي الموت والحيلة في الرزق هما المهيمتان على القسم الأول من المجموعة، فإن تعاطف الكاتب (الراوي غالباً) يتضح من خلال تناوله لهاتين الفكرتين بنحو يغلب عليه المجاز والإيماء بحيث لا

تستطيع أن تميز بين حقيقة الموت وفكرته، أو بين الرزق ووسيلته. فالأمور كلها تظل في منطقة رمادية أو بينية تعكس مواقف الإنسان المهمش الذي يعيش كالميت، ويسعى دون أن يدركه التوفيق.

ففي أولي قصص المجموعة "تحقيق الحلم" يلتقي صديقان بعد سنوات طويلة من الغياب، وقد حقق أحدهما الثراء المادي الكبير بينما ظل الآخر على حاله البائس، حياة متواضعة وأحلام مبهضة، بالرغم من كونه صاحب مبادئ، وقد خسر الكثير من جراء هذه الأخلاقية التي تنزع نحو المثالية في عالم غارق في ماديته. ويأتي لقاء الصديقين بمثابة تحد جديد في صراع لا ينتهي أبدا بين الاتجاهين المتعارضين، ويدور الحوار في شكل مباراة يبدو فيها بطلنا الطرف الضعيف، غير أن الصديق الغني، إمعانا في التحدي، يعرض على صديقه الفقير رهانا مغريا، بأن يمنحه مليوناً من الجنيهات لمدة عام مقابل التخلي عن مبادئه، غير أن المفاجأة أنه يقرر أن يتخلى عن مبادئه في الحال ويقتل صديقه بعد أن يتسلم منه المليون جنيها، فيقول في نفسه:

"فتح درج مكتبه، أخرج العقد مكتوبا، وقعه كطرف أول، أراني الشيك، أشار إلي أصفار المليون وهو يعدها، نصحني قبل أن أوقع، أملك عام إما أن تتغير وتنجح وتفوز بالأموال، وأما أن ترد المليون كاملا، كان علي ثقة من فشلي وتبديد الأموال، وكنت أدرك أنني الآن فقط تغيرت فعلا، لن انتظر عاما لتثبت له أحقيتي بالمليون، تكفيني دقائق عشر، لتحصل على الأموال ونسختي من العقد ثم أقتله وأفر بعيدا" (فاتحة لصاحب المقام، ص13).

تنتهي القصة عند هذه الكلمات، ولا ندري هل نفذت الشخصية انتقامها

أم لا، فالأخلاقية التي عاشت بها طوال هذه السنوات، وتحملت الذل والمهانة من الجميع وهي تعيش على حد الكفاف، عاجزة عن الثأر وتغيير، من المستبعد أن تتغير في لحظة، خاصة أنها امتلكت مليون جنيتها في دقائق.

ربما كان القرار الخطير الذي اتخذته بقتل الصديق الغني، مجرد خاطر داخلي في النفس، وظل هكذا دون أن يخرج إلى حيز التنفيذ.

وهنا ينبغي أن نلاحظ مسألة الارتباط بين فكرة الموت والحيلة في الرزق، فالخطر الذي أتى لبطل القصة كان ينطوي على خدعة لصديقه تمكنه من الفوز بالمال والفرار بعيدا.

ويمكننا أن نعثر علي المعني نفسه في قصة "الذي جري"، التي تدور حول سائق تاكسي يعمل طوال اليوم من أجل لقمة العيش، ويلقى الكثير من العنت من قبل الزبائن الذين يشكون في مصداقية أجرته حتى أنه يطرح سؤالاً وجودياً متكرراً: "ما الذي جري للناس؟".

وتمضي أحداث القصة لمعرفة الذي جرى، وفي لحظة مصيرية يصدم السائق أحد المارة الذي ظهر أمامه فجأة، فلم يستطع أن يتفاداه، ولا يجد أمامه من سبيل سوى الهرب، فاخترت في أحد الحارات الجانبية، ثم عاد ماشياً علي قدميه لمعرفة ما جري، لكنه يكشف عدم وجود حادث من الأساس، لنقرأ: "ليس ثمة قتيل في الشارع، لا جثة لأحد على الأسفلت، لا دم متخثر، لم أجد شيئاً مغطي بالجرائد، ولا بشراً يتحلقون، وليس ثمة آثار لأي شيء على الأسفلت، تلفت يمينا ويسارا، تمثال نهضة مصر يواجهني، ومديرية الأمن غير بعيدة، صور الرجل الكبير تملأ الحوائط، جنود كثيرون مرشوقون في الأسفلت، وليس ثمة جثة" (فاتحة لصاحب المقام، ص 16).

كما كان الموت فكرة في رأس بطل قصة "تحقيق الحلم" فنجد هنا وهما في خيال بطل القصة الحالية، فبالرغم من أن السائق رأي الواقعة بعينيه لأنه هو الذي كان يقود السيارة إلا أن الواقع جاء خلوا من الحادث برمته ما يجعل القارئ يشك في سلامة إدراك السائق. ولأن البطل هو الراوي فيمكنك أن تشك في القصة برمتها التي يرويها علي لسانه، يؤكد ذلك تساؤله هو نفسه:

"لكن هل أجد من يصدقني؟ هل ينصفني شاهد؟ كان لابد من الفرار" (ص15).

إن قضية الشك هي مفتاح الإجابة عن السؤال الرئيسي: "ما الذي جري للناس؟". فكل الأشخاص لها عالمها الخاص الذي تحكمه قوانين ذاتية لا يفهمها إلا أصحابها، وهي عوالم متداخلة على مستوى الحياة من الخارج، لكنها تمثل حقيقة مستقلة ومنعزلة في داخل كل شخص على حدة، ما يجعل سوء الظن هو السمة الغالبة على العلاقات بين الناس بالرغم من كونهم يشتركون في المعاناة نفسها ويخضعون لذات القوة الخفية التي تقهرهم دون رحمة، وفي هذا المعني يقول:

"أغلب الركاب يظنونني سارقا، أخي أيضا يظنني كذلك" (ص14).

فالذي جري للناس هو أن أحدا لم يعد يفهم الآخر، لأن كل واحد يتحدث بلغة غير التي يتحدث بها الآخر، ويسلك في تصرفاته بنحو مختلف عن الآخر، ما جعل كل منهم يري ما لا يراه الآخرون، حتي المرأة البعيدة التي كانت تبيع لعب الأطفال في الشارع تطرح السؤال نفسه، لأنها لا تجد من يشتري بضاعتها في ظل وجود أناس يؤثرون الفرجة على الشراء في إشارة إلي حالة العجز التي أصابت الجميع، فتقول:

"من صباحية ربنا والعيل بيرقص والناس بيتفرجوا، غيرت البطارية مرتين والناس لا حد منهم اشترى ولا حد مشي" (ص15).

ويتبدى التداخل بين فكرتي الموت والرزق، في المشهد الذي تحل فيه لمة الناس حول المرأة التي تبيع لعب الأطفال محل لمة الناس حول الحادث الذي لم يحدث، فكلاهما يعكس المعنى العميق للفرجة الذي لا يميز بين الموت والحياة، فالناس التي لا تموت ولا تملك القدرة علي العيش بنحو يتناسب مع آدميتها، لا تجد سوي خيار الفرجة خاصة إذا كان المشهد المأساوي يخص آخرين، وإن كنا نشارك في مأساويته دون أن نشعر بنحو ما عبر الكاتب ببراعة قائلا:

"خلسة اندسست بين الواقفين، كانت اللمة حول امرأة مقعدة تبيع لعبا للأطفال، كانت الدمية الكبيرة على هيئة طفل يرتدي قبعة، بين شفتيه سيجار، وتتبعث منه أصوات موسيقي، الطفل الدمية يرقص، والواقفون يعجبون بينما المرأة المقعدة تزفر: ما الذي جرى للناس؟" (ص16).

والذين لا يموتون يعيشون في اغتراب، "فالذي لم يتخطفه الموت أدركه النسيان" (ص27). وهي تجربة وجودية عميقة تكشف عن معنى السكن، فالاغتراب داخل الوطن يرتبط بالانتقال من مسكن إلي مسكن، ومرعي بطل قصة "المبخرة والمجمرة" يعاني الشعور بالاغتراب نتيجة انتقاله من الريف إلي المدينة، بالرغم من أنه انتقل إلي أطراف المدينة في منطقة "أبو النمرس"، إلا أن فقدانه للدفع يجعله يعبر عن اغترابه بعبارة يرددها كثيرا: "أبو النمرس مدينة باردة" (ص27).

ولأن الغربة شعور داخلي فقد اختار مرعي "أبو النمرس" كمكان للسكن لأنها الأقرب للعاصمة، المكان الذي يصرف منه معاشه، فيقول:

"أنا في كل الأماكن غريب. وما دامت الغربية واحدة فلاسكن المكان الأقرب" (ص27).

وكما يرتبط الموت بالبحث عن الرزق يرتبط الرزق بالاغتراب، فتقول سعاد ابنه مرعي التي انتقلت معه للعيش في أبو النمرس:

"أخي طار فوقهما إلي العراق وعاد ميتا، ومثله زوجي الذي مات هناك في الصحراء، ماتا غريبين، ضاعا، وانت يا أبي مثلهما... أنت حر في سكتاك يا أبي، أما أنا فكل الأماكن عندي سواء". (ص29).

والذين يعيشون في اغتراب ولا يقتلهم الجوع أو البرد يملكون الحيلة لانتزاع الرزق، فيحوّل مرعي خاطر الذي انبثق في ذهنه كومضة خاطفة، أثناء استدفانة بحرارة المجمرة من هجمة البرد، إلى أداة للارتزاق بحيث تكون مجمرة في الليل ومبخرة في النهار، فنقرأ:

"كل المطلوب منه أن يشعل البخور ويسير، يتوقف أمام الدكان أو البيت صائحا: صلي علي النبي. يطلق بخوره ويمد يده، فتمتد أياد أخرى بقطع من العملة المعدنية، ويظل يجوب الطرقات" (ص30-31).

ورغم كل شيء يظل الدفء الإنساني هو العلاج لكل أوجاع البشر، فالمعاناة الناجمة عن خبرة الألم هي العنصر المشترك الذي يوحد البشر خاصة في لحظات الضياع والسقوط. ربما يكون الموت موقفا حديا أخيرا، لكن تظل الحياة أفقا مفتوحا من الإمكانيات وميدانا خصبا للعديد من الممارسات. فأن تعيش يعني أن تجاوز الموت في كل لحظة، وهؤلاء المهمشون، المقصيون بعيدا عن المنابع الصافية للوجود، لا يملكون إلا التعاطف الذي يعينهم علي مواصلة السير.

فما زال مرعي يعاني الاغتراب، والبرودة تنهش جسده كل يوم لقاء قروش قليلة يلقي في حجر ابنته حين يعود إلى مأواه في الليل، وكان من الممكن أن يسقط في أي لحظة لولا وجود الابنة التي منحته الدفء وقت أن تحول جسده إلى لوح من الثلج:

"تدلك يديه بيديها الدافنتين. تدمع عيناه بينما يحاول أن يبتسم، تضمه سعاد بحنو ممزوج بالخوف، يذوب في حضنها، تدمع عيناه وهو يهمس: تصدقي يا سعاد لأول مرة منذ عمر طويل أشعر بالدفء" (ص31).

المبحث الثاني: جدل الأنا والأنا:

تغلب النزعة الوجودية علي القسم الثاني من المجموعة، التي تحمل عنوان "رؤى"، كما القسم الأول، غير أننا لا يمكن أن نتجاهل أن كاتبنا ليس فيلسوفا محترفا يمارس الكتابة الأدبية كسارتر، ولكنه أديب علي الأصالة يقدم رؤيته الإبداعية بنحو إنساني يتماس مع بعض قضايا الفلسفة بمعناها الوجودي الواسع من قبيل الهوية، القلق، الانتظار، الموت.

وبهذا المعني ينبغي أن نلاحظ أن ثمة انحرافا أو تعديلا في الخبرة الوجودية في ثوبها الأدبي عند شلتوت عنها عند سارتر خاصة في القسم الأول من المجموعة الذي تناول جدلية العلاقة بين الأنا والآخر. فالآخر عند سارتر كان جحيما بالنسبة للأنا، في حين أنه كان شريكا في المعاناة ومن ثم كان مصدرا للتعاطف عند شلتوت.

وبالمعني نفسه يمكننا أن نقرأ القسم الثاني، فمذ القصص الأولي يتبدى لنا الحضور الطاعي للأنا، وأزمتها الذاتية النابعة من الروح التأملية التي تطغي على الوعي بحيث يجد نفسه طوال الوقت في حالة

من البحث والتساؤل، وإن بطريقة غير مباشرة، عن حقيقة ذاته ومعنى حياته.

ففي قصة "الظل والقربان" يقف البطل أمام المرأة وهو ممسك بصورة قديمة ورسالة لم يزل بها بعض من العطر، وكلما أحس بالآسى أحرق واحدة من الاثنتين، وعندما انتهى منهما وتخلص تماما من الآسى اشتعلت النار في جسده. وإذا أردنا أن نفهم القصة فعلينا أن ننظر إلى مفردات الواقع البسيطة التي تحيط بالبطل باعتبارها رموزا تعكس العلاقة المتداخلة بين الماضي والحاضر، فالمرأة هي الحاضر التي يعكس حالته البائسة ويفضح شعوره بالآسى الناجم عن فقد الزوجة أو الحبيبة الموجودة في الصورة، ويومئ إليها بسريران النار في فستانها حتى وجهها. والصورة والرسالة المعطرة ترمزان إلى الماضي الذي لم يزل يمارس تأثيره عليه ويتحكم في حاضره من خلال ملامح الآسى التي يرسمها على وجهه.

والمفارقة ذات الدلالة أن التخلص من الذكريات المؤلمة بحرق أشياء الماضي لا يحقق للبطل التحرر من أسر الماضي، فثمة وحش يقف في الخلفية يعيد إليه الآسى مرة أخرى كلما تخلص من أحد أشياءه، حتي أنه يتضخم ويرقص ثملا في اللحظة التي تشتعل فيها النيران في جسده بعد أن تخلص من الآسى تماما. ربما كان يرمز الوحش إلى الزمن وربما إلى الحب أو الحنين، لكنه في كل الأحوال يملك الكلمة الأخيرة في حسم الصراع الداخلي وصياغة كلمة النهاية.

وبالرغم من أن العلاقة تبدو وكأنها علاقة أنا بآخر، إلا أنها في الحقيقة علاقة أنا فردية بذاتها، لأن الآخر لا وجود له علي الحقيقة وإنما

وجوده علي مستوي الوعي، من خلال التذكر. والملاحظ أن تجربة بطلنا المغرقة في الذاتية، التي تخلو من آخر عدا ذاته وأشياء العالم الخارجي ستتكرر في قصص أخرى من المجموعة، وأن خبرة الشعور بالوحدة سيكون لها الصدارة في العديد من المواقف.

وتتبدى تجربة الوحدة، التي تعادل الاغتراب في قصص القسم الأول، في قصة "وحيدان" حيث تنماهي شخصية البطل مع عصفوره المحبوس في القفص وقد توقف عن الغناء، فيقول معبرا عن وحدته:

"وحدي.. لم يعد الكتاب أنيسا، والذكريات باتت كئيبة، والزمان توقف. يستبد بي الضجر، أغادر الفراش إلى المطبخ، أحمل كوب الشاي إلى الصالون، ولما أفرغ منه أعود للتمدد في الفراش" (ص83).

وخلافا لروكنتان، بطل سارتر، لا يعاني بطل شلتوت من الغثيان وإنما من الضجر، فالحياة في وحدة، في ظل شعور قاس برتابة الحياة وتوقف الزمن هو ما يدفعه للشعور بالضجر. والمفارقة أن العصفور نفسه يتصرف داخل القفص بالطريقة نفسها وكأنه يعاني خبرة الضجر التي يستشعرها صاحبه. وفي كل الأحوال لا يمكث بطلنا طويلا ولا يستسلم لتلك الحالة السلبية، وإنما يسعى لتحرير العصفور أولا ثم نفسه بعد ذلك، بعد أن يطير العصفور ولا يعود، ويكتشف البطل أنه لم يكن في وحدة حقيقية في جود العصفور الذي كان يأنس به. وفي هذا المعنى يقول:

"أفتح كل النوافذ لكن العصفور البطر لا يعود. طائر الضجر اللعين ينفرد بي، يستبد. رغم بطره إلا أن عصفوري كان أنيسا. فلأغادر بحثا عنه" (ص84).

والضجر يرتبط بالانتظار، فكلاهما خبرتان إنسانيتان عميقتان تعكسان حالة الإنسان عندما يكون وحيداً، وعلاقته بالطبيعة والكائنات. فالوحدة تدفع البطل للتأمل والانتظار الذي يعقبه الملل، فنقرأ:

"أكملت انتظاري بالوقوف عند الزاوية، بضجر أعواد النظر في ساعتى، قبل أن أرسل ناظري لمسحان الأفق بحثاً عنم أنتظر. لم أفلح في قتل الملل فقررت الانصراف" (ص86).

وفي خطوة ذات دلالة يطرح كاتبنا خبرة الانتظار في سياق علاقته بالكائنات الحية من دون الإنسان، وهي العلاقة التي تعكس نمطا من التعاطف الكوني بين الذات والعالم الغارق بؤسه. يتبدى ذلك في تلك النظرة المتأملّة، التي لا تفارق الأنا تجاه تفاصيل الحياة الصغيرة، والتي تتعلق بمصائر كائنات ضعيفة لا تملك القدرة علي العيش في أمان، فتدفع حياتها ثمناً لضعفها، فنقرأ في قصة "انتظار" وصفا دقيقا للحظات فاصلة يقف فيها عصفور صغير فوق السور:

"يتأهب للطيران، يشرع الجناحين، كأنه يجربهما قبل الانطلاق، يتراجع، يخفضهما، يطويهما، يمكث عائدا للتلفت والوقوف على ساق واحدة يبادلها كل ثانيتين. ولما يمل، يشرع في المشي فوق إفريز الشرفة. يخطو بتؤدة من حافة السور لمنتصفه ثم يعاود الوقوف، كأنه ينتظر شيئا" (ص85).

إننا أمام واحدة من تجليات روح الرواية الجديدة، لدي ناتالي ساروت بخاصة، التي تُعني برصد ديناميات الحدث قبل حدوثه، فهي نظرة ميكروسكوبية تكشف عن الإرهاصات الأولى للأحداث الجسام. والحدث الجسيم هنا هو موت الطائر الحر الطليق في لحظة عبثية كان بطلها طفل

يلهو بنبله لاصطياد العصفير، وكذا موت القط المذعور تحت عجلات سيارة مسرعة أثناء فراره من لا شيء في قصة "خلاص".

وبالرغم من أن ساروت كانت تخوض تحدياً أكبر عندما كانت ترصد الإرهاصات البسيطة للأحداث الأكثر بساطة، مثل قرار الشراء لدى الواقفين أمام واجهات المحلات، إلا أن شلتوت لا يختلف كثيراً، لأنه لا يكتب تطبيقاً لنظرية سابقة مثل رواد الرواية الجديدة، وإنما يكتب بدافع من التعاطف الإنساني مع مخلوقات العالم الضعيفة، ولأنه عندما يفعل ذلك إنما يكشف في الوقت نفسه عن الضعف الإنساني، خاصة إذا فهمنا القصص بالمعنى الرمزي، فثمة نوع من التماهي بين شخوص القصص والحيوانات الأليفة التي ترتبط معها بعلاقة ما، صريحة أو ضمنية، وفي كل الأحوال تأتي هذه العلاقة على مستوى التأمل الانعكاسي الذي يجعل الشخصية تري نفسها العاقلة في الآخر غير العاقل، وتستشرف مصيرها المؤلم، القادم لا محالة إذا لم تتعلم من الدرس الكوني الذي تفرضه قوانين الطبيعة. فربما يكون في الموت خلاصاً، لكنه خلاص العجزة واليائسين الذين لا يعرفون سوى الفرار اختياراً، وفي هذا المعنى نقرأ:

"وعند آخر الشارع توقفه سيارة مسرعة يجد نفسه محاصراً بين عجلاتها والأسفلت، وعندما لحقته به لم يعدوا مواصلاً فراره، فقد تخلص من خوفه حينما ثبتته عجلات السيارة على الأسفلت" (ص86).

وفي واحدة من مظاهر التجربة الوجودية الأكثر إثارة وطرافة في الوقت نفسه، تأتي قصة "عيون" التي تردنا إلى فلسفة النظرة عند سارتر. فبحيم الآخر الذي يقتحم الأنا يرتبط بالنظرة التي تجمدني في مكاني وتحيلني إلى مجرد موضوع للتأمل والفضول القاسي الذي لا يخلو من

دلالة اتهام تجاه ما نقوم به في الخفاء معتقدين ألا أحد يرانا. غير أن القسوة الحقيقية إنما تتبع من تلك النظرة التي لا تصادف موضوعا يصلح للإدانة، ومع ذلك تواصل تحديقها في الأنا الذي يمارس حياته اليومية في سلام معتقدا أنه ينعم بالمشروعية المطلقة لمجرد كونه موجودا دون أن يتحمل مسؤولية هذا الوجود، فنقرأ:

"تضييق بنظرات الرجل. منذ دخولك المقهى وعيناه تتابعانك. لم يخف نظراته الفاضحة لفضوله، لكن إن التقت عيناكما تلجأ نظراته للفرار، يرميهن بين قدميك" (ص96).

وبالرغم من أن بطلنا يشعر بالضيق من نظرات الآخر الفضولي، إلا أن كاتبنا، وخلافا لسارتر، لا يقدم لنا رؤية واضحة عن الشخصية محور الحدث سوي كونها تجلس في مقهى وتشعر بالاضطراب تجاه نظرات الآخر، وفي المقابل يجعل من هذا الآخر موضوعا لنظرة الأنا المتأمل، ما يجعلنا نعرف عنها أكثر مما نعرف عن البطل، يتبدى ذلك في تلك الكلمات:

"تفكر في توبيخه، تهتم بأن تسأله في غضب عن سر تحديقك، لكن كبر سنه والأسى الطافح من ملامحه يمنعانك، وإن لم يبددا ضيقك... تهتم بالخروج فينهض، يسبقك إلى الشارع وهو يخطب بالفرشاة الخشنة علي صندوقه الخشبي (ص96).

إن سارتر يتحدث عن النظرة المجردة التي تكبل الوجود لأنه كان معنيا بقضية الحرية، غير أن شلتوت يتحدث عن النظرة الحية التي تتبع من معاناة المهمشين الباحثين عن الرزق لأنه كان معنيا بقضية العيش. يؤكد ذلك أنه يعبر عن المعني بكلمة "عيون" وسارتر يستخدم تعبير

"النظرة"، ما يعني أن سارتر يبحث في فعل النظر، بينما يبحث شلتوت عن صاحب النظرة، لذلك كان يتساءل "من هو؟"، وهو التساؤل الذي اتضحت إجابته في نهاية القصة:

"تبحث عن بقايا نظراته بين قدميك عليها تخبرك شيئاً، ترى حذائك وقد غطته أتربه كثيفة، حينئذ فقط تدرك سر فضوله" (ص96).

وأخيراً يمكننا أن نقول إن "فاتحة لصاحب المقام" إنما هي فاتحة للإنسان الضائع في دائرة التيه، الإنسان الذي يبحث عن مكان متواضع وسط الزحام، الذي يكافح من أجل الوجود بالرغم من افتقاده لأسباب العيش. إنه نبي بغير رسالة، ولي دون مريدين، ثائر صامت دون جماهير تسمع صرخته وتمجد ثورته، عدا كاتب مبدع مهموم بقضاياها في قامة أحمد رجب شلتوت.

أحمد رجب شلتوت يوثق مواجه المصريين قصصيا

عبد الكريم الحجراوي

يغلب على كتاب القصص القصيرة العرب الطابع الرومانسي لأسباب عدة، منها طبيعة الشخصية العربية التي يطغى عليها الجانب العاطفي، وتشابه القصة القصيرة والشعر في الطبيعة الغنائية لجهة تركيزهما على تصوير المشاعر الإنسانية. ولا تختلف مجموعة القاص والروائي المصري أحمد رجب شلتوت "فاتحة لصاحب المقام" (الهيئة المصرية العامة للكتاب) في منحها الإبداعي عن النزعة الرومانسية حيث الرؤية المأساوية للعالم في المجموعة التي تضم أكثر من أربعين قصة قصيرة، الاهتمام بالطبيعة والاحتفاء بالليل والطيور المحلقة والخيول الجامحة كدلالة على نشدان الحرية، إضافة إلى الجنوح بالخيال بقصص ذات طابع صوفي، بخاصة في القسم الثاني من الكتاب المعنون بـ"رؤى".

ومن خصائص النزعة الرومانسية البارزة في المجموعة أن أصحاب

هذا المذهب الأدبي لا ينشغلون بالقضايا المجتمعية ككل ولكن بانعكاس هذه القضايا والمشكلات على الأفراد ووصف مشاعر الحزن والألم. لذا يبدو من المنطقي تصدير المجموعة بقول جوزيه ساراماجو: "إن كل واحد منا هو القلق الخاص بنا جميعاً؛ لأننا بسبب ذلك القلق نكون قليلي العدد للغاية، وبسبب ذلك القلق أيضاً ننجح في أن نكون كثيرين للغاية"، وبقول بابلو نيرودا: "ربما لم أعش حياتي قط، ربما عشت حيوات الآخرين".

المشهدية السردية

ويكثر في مجموعة أحمد رجب شلتوت تقسيم كل قصة قصيرة إلى مشاهد منفصلة عدة، عين كاميرا سينمائية تنتقل من مشهد إلى آخر بسلسلة لترسم في النهاية لوحة متشابكة توضح صورة المجتمع المصري ككل.

ففي قصة "مفترق طرق"، يصف السارد الزحام الشديد في شوارع القاهرة الذي يشبهه بـ "يوم الحشر"، إذ يرصد متناقضات شتى تملأ لحظة واحدة من لحظات الشارع إذا أعدت تأملها، ومنها ينطلق إلى المشهد الثاني صوت الميكروفون الذي يمسك به ملتج يدعو الناس إلى تبرّع لأعمال الخير ومكتبة تباع كتباً عن الآخرة وعذاب القبر وبالقرب منه كتاب آخر فيه وصفات جنسية تعيد الشيخ إلى صباه.

وفي المشهد الثالث، يعبر السارد وصديقه إلى الضفة الأخرى من الشارع، يجد مسيحياً يحمل مكبر الصوت يدعو المؤمنين إلى التبرّع، وفرشة عليها كتب تبشّر بجنة أخرى، فيما تعلو أصوات الترانيم من الدير القريب.

وبعبور هذا الطريق، ينظر السارد ناحية المستشفى التي تقف أمامها سيارة إسعاف وبمكبّر صوت، يدعو المسعف المواطنين إلى التبرّع بالدم، فيشدّ منه الميكروفون شخص بالقرب منه ويطلب المواطنين بالتبرّع لأطفال مبتسرين وأطفال مرضى القلب. وفي المشهد الأخير، تقترب شابة بثوب بال أسود، تمدّ يدها وتستعطفهما بابتها الرضيع لكن صديق السارد يرفض أن يعطيها شيئاً لتتصرف حزينة وتجلس تحت صورة كبيرة للرئيس الذي يمدّ يده بابتسامة، فيما المتسولة تمدّ يدها تماماً تحت يد الرئيس كي يعطف عليها المارة.

يقول السارد معلّقاً: "أهمّ بنصحها بالابتعاد وتغيير المكان، فاليد الممدودة في الصورة لن تعطي شيئاً لكن صديقي يشدّني لنواصل العبور". مشاهد سريعة مكثفة تكشف عما تعانیه طبقات مطحونة وسط غياب حقيقي لدور الدولة وغياب للعدالة الاجتماعية.

ومن القصص التي أجاد في رسمها بالسرد السينمائي قصة "المبكرة والمجرة" التي يحكي فيها مراحل حياة العجوز مرعي في مشاهد سريعة يبدأها بالمشهد "أ، ثم ب، ت، ث" وبعد المشهد "ثاء" ينتقل مباشرة إلى المشهد الأخير (ي) الذي يعني نهاية البطل وموته بعدما عانى طوال حياته من شتاء طويل لا انتهاء له.

رحلة من الشقاء حتى يستطيع أن يكمل مسيرته في حياة لم تكن طموحاته فيها كبيرة... فقط منزل يسكنه ولقمة عيش تقيم أوده مع أسرته.

وتزخر المجموعة بالقصص التي تعبّر عن تأثيرات الوضع الاقتصادي الصعب الذي تعيشه فئات مختلفة. ففي قصة "تحقيق الحلم"، نحن أمام المثقف الذي يحلم في سكن مريح، ومرتبّ ثلاثة أضعاف مرتبّه

الضئيل الذي يأخذه من عمله الحكومي.

وترصد قصة "مفترق طرق" الوضع الاقتصادي الصعب للطبقات الدنيا، كما تظهره شوارع العاصمة المزدهمة.

وفي "المبخرة والمجمرة" وسيلة أخرى من وسائل التحايل على الرزق لذلك الرجل العجوز الذي وجد أن عليه أن يعيل ابنته الأرملة، فيما المعاش الذي يحصل عليه جد هزيل، فيطوف الشوارع بمبخرته يبحر المحلات والبيوت مقابل بضعة قروش.

وفي "فاتحة لصاحب المقام"، وصف لشقة أرملة في الطابق الأرضي، فما إن تفتح شباكها الذي غطاه الشارع وتفرش سريرها بثوب أخضر، يأتي فقير ويقف أمام الشباك ويتلو سورة الفاتحة، معتقداً أن المكان هو ضريح لأحد الأولياء.

وتحكي قصة "انكسار" عن الموظف الذي شهد ضد مديره بما رآه، فنكل به ونقله من عمله بمساعدة أقاربه الذين يعملون في أجهزة نافذة في الدولة، فيتخلى عن كرامته ويركع أمام المدير ليعفو عنه من أجل أبنائه ويعيده إلى العمل.

الإضرار الداخلي

ويكثر في نصوص أحمد رجب شلتوت الحوار الذي يكشف كيف يستعمل المصريون اللغة على نحو أشار إليه عالم الاجتماع اللغوي وأحد كبار المنظرين للنظرية التداولية جاكوب ماي في كتابه "مقدمة للتداولية" (pragmatics: an introduction).

والمقصود هنا هو الإضمار الذي يعدّ أصلاً مترسماً في الوعي المجتمعي، ويتجلى في استعمال العبارات غير المباشرة في الحوارات العادية. وتلك الفرضية استمدتها جاكوب ماي من فلاسفة اللغة العادية وعلى رأسهم النمسوي لودفيغ فتنغنشتاين، القائل بنظرية "الألعاب اللغوية".

وفي قصة "تحقيق حلم"، يتعمّد الصديق الغني العائد من السفر أن يوجّه الإهانات إلى صديقه المثقف الفقير عبر عبارات غير مباشرة، لكن في سياق اللعبة اللغوية التي يعرف الطرفان قواعدهما، تصل الرسالة المقصودة مباشرة في مثل هذا الحوار الدائر بين المثقف وصديقه الغني.

يقول المثقف مجاملاً لصديقه الذي عاد بثرأ فاحش - "أنت هنا تكشف عن أحد أسرار نجاحك. لکمني قائلاً من خلال ابتسامة بغیضة - بل أکشف عن أحد أسباب فشلك".

هكذا يستخدم الطرفان اللغة لتوجيه الإهانات بشكل غير مباشر. الأمر ذاته يتكرر في عددٍ من القصص، من بينها "ذلك النداء" بين سعيد وزوجته.

وهذه اللغة الإيحائية المعمّاة ليست مقتصرة على الحوار فقط الذي يدرجه شلتوت داخل نصوصه، بل هي أيضاً من سمات سرده، كما في قصة "عيون" وفيها السارد الذي يضيق ذرعاً برجل يحملق فيه، فيزجره بعينه لعله يتوقف عن ذلك، فيبعد الرجل عينيه لثوانٍ ثم يعيد النظر ويتركهما بين قدمي السارد الذي يشرب الشاي في المقهى. وحين يغادر هذا المكان، يدرك سبب فضول ونظر الرجل إلى حذائه الذي يعلوه الغبار، بينما الرجل الناظر يعمل ماسح أحذية.

واعتمد شلتوت على هذه الإضمارية والتلويح بالمعنى في خلق ما يُعرف في علم البديع بـ"براعة الختام"، صانعاً المفارقات والنهايات المفتوحة لقصصه مثل ما هو في قصة "ذلك النداء" عن حكاية ذلك الرجل الذي ولد بإعاقاة تمنعه من المشي، ويجيد صنع الطائرات الورقية التي يتهافت الأطفال على شرائها منه حتى قتل بسببها طفلاً، فيقرر صناعة طائرة أكبر من المعتاد ويطلقها، وهو ممسك بطرف خيطها، "يجبو باتجاه حافة السطح، وتظل طائرته تناديه فلا يملك سوى أن يلتي النداء".

وشملت المجموعة قصصاً ذات طابع فانتازي بعضها يشبه الحكايات الشعبية، وبعضها جاء بلغة سريرية، وغالبية القصص لم يتجاوز طولها الصفحة الواحدة، وتناقش مشاعر شتى مثل الغربة والوحدة والحزن والقهر والانكسار، معاناة كبار السن والمعاقين بما يشهده واقعهم من مفارقات وأحداث مؤلمة.

أحمد رجب شلتوت



مواليد 17 أبريل 1962، حاصل على بكالوريوس تجارة من جامعة القاهرة. عمل كبيراً للباحثين في وزارة الشباب والرياضة سابقاً، وأحيل إلى المعاش في 17 أبريل 2022. بدأ النشر في الصحف والمجلات منذ عام 1985، وعمل محرراً ثقافياً بوكالة الصحافة العربية من 1994 حتى 2001 ثم من 2016 حتى 2021، كما كان مسؤولاً عن القسم الثقافي بموقع الأزمة الإلكتروني من 2009 حتى 2012. نشر مقالاته في جريدة العرب اللندنية وجريدة القدس العربي والزوراء العراقية والصبح العراقية.

الجوائز والتكريمات

1. فاز بالمركز الأول في مسابقة جريدة الشعب للقصة القصيرة
1990
2. فاز بالمركز الأول في مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة
1996
3. فاز بالمركز الثاني في مسابقة الهيئة العامة لقصور الثقافة
للمسرحية الطويلة 1996
4. فاز بالمركز الثاني في مسابقة ساقية الصاوي في القصة
القصيرة جدا عام 2009
5. فاز في مسابقة جمعية الأدباء في الرواية عام ، 2009 ، وفي
القصة القصيرة 2010
6. فاز في مسابقة إحسان عبد القدوس في الرواية عام 2010
عن رواية " حالة شجن "
7. كما فاز أكثر من مرة في مسابقات الهيئة العامة لقصور
الثقافة ومسابقات وزارة الشباب في القصة القصيرة
والمسرحية والبحث.

صدر له:

- العائد إلى فرحانة، مجموعة قصصية، وكالة الصحافة
العربية 1996
- السعار والشذى، مجموعة قصصية 1997
- دم العصفور، مجموعة قصصية، الهيئة العامة لقصور
الثقافة 2002

- زوال، رواية قصيرة، 2003
- العش للعصافير، مجموعة قصصية للأطفال، كتب عربية 2005
- بندق يجد الكنز، مسرحية للأطفال 2005
- مدارات روائية، قراءات، 2018
- الظل والقربان مجموعة قصصية 2019
- رشقات من النهر، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2019
- الرواية فن البحث عن الإنسان، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2019
- ربيع البنفسج قراءات في الرواية العربية، وكالة الصحافة العربية 2020
- فاتحة لصاحب المقام، قصص قصيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2020
- حالة شجن، رواية قصيرة، الدار الثقافية التونسية 2020 ، طبعة ثانية عن وكالة الصحافة العربية 2023
- العزلة ليست هي الوحدة، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2021
- حياة بين الرفوف، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2022
- والرواية غواية، قراءات، وكالة الصحافة العربية 2023
- فاطمة لا ترقص التانجو، مختارات قصصية، 2025 (فازت بجائزة اتحاد كتاب مصر للسرد القصصي عن عام 2025)
- النهار والشجن إطلالات على عالم أسامة أنور عكاشة، 2026